## السَّنة السابعةُ والثَّمانون بعد المئة

فيها أَوقع الرشيدُ بالبرامكة، وقتل جعفرَ بن يحيى، وحبس يحيى وأهلَه.

واختلفوا في سبب ذلك على أقوال[١]:

قال ثُمامَةُ بن أَشْرَس: كتب محمَّد بن اللَّيث إلى هارونَ يَعِظُه ويقول: إنَّ يحيى لا يُغني عنك من اللهِ شيئاً، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله، فكيف بك إذا وقفتَ غداً بين يدي اللهِ تعالى فسألك عمَّا فعلت في بلاده وعبادِه، فتقول: ياربّ، إنِّي استكفيتُ بيحيى في ذلك. مع كلامٍ كثيرٍ فيه توبيخٌ وتقريع.

فدعا الرشيدُ يحيى وقد علم، فقال: أَتعرف محمَّد بن الليث؟ قال: نعم، قال: أيُّ رجل هو؟ قال: متَّهم على الإِسلام. فأمر بمحمَّد فحُبس في المُطْبَق دهراً، فلمَّا تنكَّر الرشيدُ للبرامكة ذكره، فأمر بإحضاره، وقال له: يا محمَّد، أَتحبُّني؟ قال لا والله، كيف أحبُّك وقد قيَّدتني وكبَّلتني بالحديد! وحُلتَ بيني وبين عيالي من غير ذنبٍ أتيتُ ولا حدثٍ أحدثت! سوى قولِ حاسدٍ يكيد الإسلامَ وأهلَه! فكيف أحبُّك؟! فأمر بإطلاقه، وأعطاه مئةَ ألفِ درهم، وقال له: انتقمَ الله لك ممَّن ظلمك، وأخذ بحقِّك ممَّن حملني عليك. فقال الناسُ في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أولَ ما ظهر من تغيُّر حالهم.

والثاني: أنَّه نُقل إلى هارونَ أنَّ البرامكةَ يرون رأيَ المجوس، وأنهم يُبطنون ذلك ويميلون إلى مذاهبهم.

والثالث: أنَّ الفضلَ بن الربيعِ كان عدوَّهم يَحْسِدهم ويُكثِّر عليهم عند هارون، دخل الفضلُ يوماً على يحيى بنِ خالدٍ في حاجة، فلم يرفعْ له رأساً، ولا قضى حاجتَه، فخرج مُغْضَباً، فقال يحيى لبعض خاصَّته: اِتْبعه واسمعْ مايقول، فتبعه الرَّجل، فلمَّا استوى على سَرجه عضَّ على شفتيه وقال: [من الطويل]

---

(١) انظر هذه الأقوال في تاريخ الطبري ٨/ ٢٨٧ـ٣٠٠، والمنتظم ٩/ ١٢٦ـ١٣٧، والكامل ٦/ ١٧٥ـ١٨٠، وتاريخ الإسلام ٤/ ٧٨٤ـ٧٨٩.

عسى وعسى يَثني الزَّمانُ عِنانَه بعَثْرَةِ دهرٍ والزمانُ عَثورُ
فتُدرَك آمالٌ وتُقضى مآربٌ ويَحدث من بعد الأمورِ أمورُ[1]

وأُخبر يحيى بقوله، فردَّه وقضى حاجتَه، فما مضت إلَّا أيامٌ يسيرةٌ حتى سَخِط هارونُ على البرامكة واستوزرَ الفضلَ بن الربيع.

والرابع: أنَّ هارونَ نُقل إليه أنَّ البرامكةَ يميلون إلى آل أبي طالبٍ، ويبعثون إليهم بخُمس أموالهم، وأنَّهم على عزم نقل الخلافةِ إليهم.

وقال جبريلُ المُتَطبِّب: أول ما بدا من أمر هارونَ في حقِّ البرامكةِ: أنَّ يحيى بن خالدٍ كان يدخل على هارونَ ولو كان في فراشه لا يُحجب عنه. قال جبريل: فدخل يحيى يوماً وأنا قاعدٌ عند الرشيد، فسلَّم، فردَّ عليه هارونُ ردًّا ضعيفاً، والتفت إليَّ هارونُ وقال: يا جبريل، أَيدخل عليك أحدٌ بغير إذن؟ قلت: لا، قال: فما بالُنا يُدخَل علينا بغير إِذن؟! فقال له يحيى: قد كنت أدخل عليك وأنت متجرِّد في فراشك بغير إِذن، وكنت أظنُّ أنَّ ذلك شيءٌ خصصتَني به، وأمَّا إذا كره أميرُ المؤمنين ذلك، فأكونُ في الطبقة الثانيةِ أو الثالثة، فخجل هارونُ منه وأطرق ما يرفع إليه طرفَه وقال: ما أَردتُ ما تكره، ولكنَّ الناس يقولون. ثم قام يحيى وخرج.

وقال محمَّد بنُ الفضل: دخل يحيى بعد ذلك على الرَّشيد، فقام إليه الغِلمان، فقال هارونُ لمسرورٍ الخادم: مُر الغلمانَ إذا دخل يحيى لا يقوموا له. فدخل فلم يَقُمْ إليه أحد، فارْبَدَّ لونُه. وكان الغلمانُ والحجَّاب إذا رأوه بعد ذلك أَعرضوا عنه، وكان إذا عطش يستسقي شربةً من ماءٍ فلا يسقونه، وبالحَرى أن يسقوه بعد أن يدعوَ بها مراراً. وما زال كذلك حتى قَتل هارونُ ولدَه جعفراً وقبض عليه.

وقال موسى بنُ يحيى: طاف أبي بالبيت في السَّنة التي أُصيب فيها وأنا معه دون ولدِه، فتعلَّق بأستارِ الكعبة، وجعل يردِّد الدُّعاء ويقول: اللهم إنْ كنتَ تعاقبني بذنوبي فهي جَمَّة لا يُحصيها غيرُك، فاجعل عقوبتي في الدنيا وإنْ أحاط ذلك بسمعي وبصري ومالي وولدي، حتى يبلغَ رضاك عَنِّي، ولا تجعلْ عقوبتي في الآخرة.

(١) الفرج بعد الشدة ١/ ٣٠٨، وفيات الأعيان ٤/ ٣٨.

وفيها[١] غزا هارونُ بلادَ الرُّوم، فأوغل فيها، وفتح هِرَقْلَة، وولَّى ابنَه القاسمَ الصَّائفة، وأَعطاه العواصم، فنازل حصنَ سنان، فبعث إليه قيصر، وسأله أن يرحلَ عنه ويعطيَه ثلاثَ مئةٍ وعشرين أسيراً من المسلمين، ففعل.

وفيها غضب هارونُ على عبد الملكِ بن صالحِ بن عليٍّ وحبسه، وكان قد سعى به كاتبُه وولدُه عبدُ الرَّحمن بنُ عبد الملكِ وقالا: إنَّه يروم الخلافة، فأحضره الرشيدُ وقال له: أكُفراً للنِّعمة وجُحوداً لجليل المِنَّة؟! فقال: يا أميرَ المؤمنين، لقد بُؤتُ بالنَّدم، وتعرَّضتُ لاستحلال النِّقَم، وما ذاك إلا بغيُ حاسد، نافَسَني فيك مودَّة القرابةِ وتقديمَ الولاية، إنِّك يا أميرَ المؤمنين خليفةُ اللهِ وخليفةُ رسولهِ في أمَّته، وأَمينُه على عِتْرَته، لك عليها فرضُ الطاعة وأداءُ النصيحة، ولها عليك العدلُ في حكمها، والتثبُّت في حادثها، والغفرانُ لذنوبها. فقال له الرَّشيد: أَتَضَعُ لي من لسانك وترفعُ من جَنانك؟! هذا كاتبُك قُمامةُ يُخبر بفعلك[٢]، فقال: إنَّه أعطاك ما ليس في عَقْده، ولعلَّه لا يقدر أن يبهتَني بما لم يعرفْه مني.

فأُحضر قُمامة، وقال له الرَّشيد: تكلَّم غيرَ هائبٍ ولا خائف، فقال: أقول: إنَّه عازمٌ على الغدر بك والخلافِ لك، فقال: كيف لا يكذب عليَّ مِن خلفي وهو يَبهتني في وجهي؟ فقال له الرَّشيد: هذا ابنُك عبدُ الرَّحمن أيضاً، أَخبَرني بفساد نيَّتك، ولو أردتُ أن أحتجَّ عليك لم أجد أعدلَ من هذين، فقال: أمَّا عبدُ الرَّحمن، فهو إمَّا مأمورٌ أو عاقّ، فإن كان مأموراً فهو مَعْذور، وإنْ كان عاقّاً فهو فاجرٌ كفور، وقد أَخبر اللهُ بعداوته وحذَّر منه بقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

فنهض الرَّشيدُ وهو يقول: أمَّا أمرُك فقد وَضَحَ، ولكنِّي لا أَعجل حتى أعلمَ الذي يُرضي اللهَ فيك؛ فإنه الحَكَمُ بيني وبينك، فقال عبدُ الملك: رضيتُ بالله حَكَماً، وبأمير المؤمنين حاكماً؛ لعلمي أنَّه يؤثر كتابَ اللهِ على هواه، وأمرَه على رضاه.

وجرت لعبد الملكِ مع الرَّشيدِ مُناظرات، منها: أَمر بإِحضاره، فدخل عليه فسلَّم،

---

(١) في (خ): وقال، والمثبت من المنتظم ٩/ ١٣٧.

(٢) في تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٣: بغلك.

فما ردَّ هارونُ وفاتَحَه الكلام، فقال عبدُ الملك: هذا يومٌ لا أُجاذِبُ فيه منازعاً ولا خصماً، قال: ولم؟ قال: لأنَّ أولَه جرى على غير السُّنَّة، فأنا أخاف آخرَه، قال: وما ذاك؟ قال: لأنَّك لم تردَّ عليَّ فيه السَّلام، فقال الرشيد: السلامُ عليك، اقتداءً بالسنَّة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً لردِّ التحيَّة.

ثم التفت إلى سليمانَ بنِ أبي جعفرٍ وأنشد يقول: [من الوافر]

أُريـد حـيـاتَـه ويُـريـد قَـتْـلـي[1]

ثم قال: لكأنِّي واللهِ أنظر إلى شُؤبوبها[2] قد هَمَع، وإلى عارِضِها قد لَمَع، وكأنِّي بالوعيد قد أَورى ناراً تَسْطَع، فأَقْلَعَ عن بَراجِمَ بلا مَعاصِم، ورؤوسٍ بلا غَلاصِم، فمهْلاً مهلاً، فبي واللهِ سَهُل لكم الوَعر، وصفا لكم الكَدَرَ، وأَلقت إليكم الأمورُ أَثناءَ[3] أزِمَّتها، ونَذارِ لكم نذار قبل حلولِ داهيةٍ خَبوطٍ باليد، لَبوطٍ بالرِّجل. فقال له عبدُ الملك: اتَّقِ اللهَ فيما ولَّاك، ولا تجعل الكفرَ موضعَ الشُّكر، ولا العِقابَ موضعَ الثَّواب، فقد نَخَلتُ لك النَّصيحة، ومَحَضْتُ لك الطاعة، وشَدَدْتُ أَواخيَ مُلكِك بأثقلَ من ركنِ يَلَمْلَم، وسهَّلت لك الوعور، وذلَّلت لك الأمور، وجمعتُ على طاعتك القلوبَ في الصدور، فكم ليل تَمامٍ فيك كابَدْتُه، ومَقامٍ ضَيِّق لك قُمتُه، كنتُ كما قال أخو بني جعفرِ بن كلاب[4]: [من الرمل]

ومَـقـامٍ ضَـيِّـقٍ فَـرَّجْـتُـه بـبَـيـانٍ ولـسـانٍ وجـدلْ
لـو يـقـوم الـفـيـلُ أو فـائـلُـهُ زلَّ عـن مـثـل مَـقـامـي وزَحَـل

فاللهَ اللهَ في رِيٍّ أن تقطعَه بعد أن بَلَلْتَه، بسعي سباعٍ تَنْهَسُ اللَّحم، وبغيِ باغٍ يبالغ في الذَّمّ[5]. فقال الرَّشيد: أَمَا واللهِ لولا الإبقاءُ على بني هاشم لضربتُ عنقَك.

(١) عجزه: عَذيرُكَ من خليلك من مُراد. وهو لعمرو بن معد يكرب، وهو في ديوانه ص١١١.
(٢) في (خ): شونها، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٤. والشؤبوب: الدفعة من المطر.
(٣) أثناء الشيء ومثانيه: قواه وطاقاته، واحدها: ثِنْي ومِثناة. القاموس المحيط (ثني).
(٤) هو لبيد بن ربيعة، والبيتان في ديوانه ص١٩٣-١٩٤ ضمن قصيدة طويلة.
(٥) في تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٤: فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بظن أفصح الكتاب لي بعضه، أو ببغي باغ ينهس اللحم، ويالغ الدم.

ومنها[١]: أنه لمَّا حبس الرشيدُ عبدَ الملك، قال له عبدُ الله بن مالكٍ الخُزاعي ـ وكان على شرطته: يا أميرَ المؤمنين، ما علمتُ عبدَ الملك إلَّا ناصحاً، فلمَ حبستَه؟ قال: بلغني عنه ما أَوحشني، ولم آمنْه أن يضربَ بين ابنَيَّ الأمينِ والمأمون، فإنْ رأيتَ أن تُطلقَه أَطلقناه، فقال: أمَّا إذ حبستَه، فلستُ أرى إطلاقهَ في قريب المدَّة، ولكن تحبسُه مَحْبَساً كريماً، يُشبه محبسَ مثلِك لمثله، قال: نعم. ودعا الفضلَ بن الربيع[٢] وقال له: اِمضِ إلى عبدِ الملكِ إلى محبسه، وقل له: انظر ما تحتاجُ إليه في محبسك فأُمُرْ به.

ومنها: أنَّ هارونَ قال له يوماً في بعض ما كلَّمه به: ما أنت لصالح، قال: فلمَن أنا؟ قال: لمروانَ الجَعْديّ، قال: ما أبالي أيُّ الفَحْلَين غلب عليّ، فحبسه الرَّشيد عند الفضلِ بن الرَّبيع، فلم يزل محبوساً حتى توفِّي الرشيد، فأَطلقه محمَّد وعقد له على الشَّام، فكان مُقيماً بالرقَّة، وجعل لمحمَّد عهدَ اللهِ وميثاقَه إنْ أصيبَ محمَّد وهو حيٌّ لا يعطي المأمونَ طاعةً أبداً، فمات قبل محمَّد، فدُفن في دارٍ من دُور الإمارة بالرَّقة، فلمَّا خرج المأمونُ يريد الرُّوم، أَرسل إلى ابنٍ له: حوِّل أباك من داري، فنُبشت عظامهُ وحوِّلت.

ومنها: أنَّ الرشيدَ بعث إلى يحيى بنِ خالدٍ وهو محبوسٌ يقول له: إنَّ عبد الملكِ بن صالحٍ أراد الخروجَ عليّ، وأن يُنازعَني في الملك، وقد علمتَ ذلك، فأَخبرني واصدُقْني، فإنْ صدقتَني أُعدتَ إلى حالك، فقال يحيى: واللهِ ما اطَّلعتُ منه على شيءٍ من هذا، وكيف يكون ذلك وملكُك مُلكي وسلطانُك سُلطاني؟! وهل كان يفعل بي لو وافقتُه أكثرَ من فعلك؟! فأُعيذك بالله من ذلك أن تظنَّ بي هذا الظنّ، ولكنَّه كان رجلاً محتملاً، يسرُّني أن يكونَ في أهلك مثلُه، فولَّيتُه لِمَا حَمِدْتُ من مذهبه، وملتُ إليه لاحتماله وأدبِه.

فلمَّا أتاه الرسولُ بهذا قال له: إنْ أنت لم تقرَّ عليه قتلتُ ابنَك الفضل، فقال: قل له: أنت مسلَّط علينا فافعل ما بدا لك، فقال الرَّسول: لا بدَّ من إنفاذ [أمر][٣] أميرِ

(١) أي: من أسباب غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح.

(٢) في (خ): المفضل بن يحيى، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٥، وسيأتي على الصواب قريباً.

(٣) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٦.

المؤمنين، ولم يشكَّ أنه قاتلُه، فودَّع الفضلُ أباه وقال: ألستَ راضياً عني؟ قال: بلى. فغاب عنه ثلاثةَ أيام، ثم أعاده إليه لمَّا لم يجد عندهما شيئاً من ذلك. وقيل: إنَّ الرسول كَان مَسْروراً الخادم.

ومنها: أنَّ الرشيدَ بينما هو يسير في مَوْكِبه وعبدُ الملك معه يسايره، هتف به هاتف: يا أميرَ المؤمنين، طأطِئْ من إشرافه، وقصِّر من عِنانه، واشدُد من شكائمه، وإلَّا فَسَدتْ عليك ناصيتُه. فقال الرشيدُ لعبد الملك: ما يقول هذا؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، مقالَ باغٍ ودَسيسَ حاسد، فقال هارون: صدقتَ، نَقَصَ القومُ وفَضَلْتَهم، وتخلَّفوا وتقدَّمتَهم، حتى برز شأوُك، وقَصَّر عنه غيرُك، ففي صدورهم جَمَراتُ التخلُّف، وحَزازاتُ النَّقص، فقال عبدُ الملك: لا أَطفأها الله[1]، وأَضْرَمَها عليهم حتى يورثَهم كَمَداً دائماً.

وكان عبدُ الملك يسكن مَنْبِج، فمرَّ به هارون، فقال له: هذا منزلُك؟ قال: هو لك يا أميرَ المؤمنين، وهو لي بك. فقال: كيف هو؟ قال: دون بناءِ أهلي، وفوق منازلِ مَنْبِج، فقال: كيف ليلُها؟ فقال: سَحَرٌ كلُّه.

وفيها: نقض نقفورُ ملكُ الروم الصُّلحَ الذي كان بينه وبين المسلمين، كانت ملكةُ الروم التي يقال لها: ريني قد صالحت المسلمين على ما ذكرنا، وأنَّ الرومَ وثبت عليها فخلعتْها وملَّكت نقفور، والرومُ تزعم أنَّه من أولاد جَفْنَةَ من غسَّان. وماتت ريني بعد خمسةِ أشهرٍ من خلعها.

ولمَّا استقام أمرُ نقفورَ واستولى على البلاد، كتب إلى الرَّشيد كتاباً يقول في أوَّله: باسم الأبِ والابنِ ورُوح القُدس[2]، من نقفور ملكِ الرُّوم إلى هارونَ ملكِ العرب، أمَّا بعد: فإنَّ الملكةَ التي كانت قبلي أَقامتْك مقامَ الرُّخّ، وأقامت نفسَها مقامَ البَيْدَق، فحملَتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقاً بحمل مثلِه إليها، ولكن ذاك ضعفُ النساءِ وحُمقُهنّ، فإذا قرأتَ كتابي هذا، فاردُدْ ما حصل قِبَلك من أموالها، وافتدِ نفسَك بما

(١) في (خ): أطفأ الله، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٦.

(٢) قوله: باسم الأب والابن وروح القدس، لم يذكره من ذكر الخبر والكتاب، انظر تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٧، والمنتظم ٩/ ١٣٨، والكامل ٦/ ١٨٥، وتاريخ الإسلام ٤/ ٧٩٠، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٤٩.

تقع به المصادرةُ لك، وإلَّا فالسيفُ بيننا وبينك، والسَّلام.

فلمَّا قرأ هارونُ الكتاب، استشاط غضباً بحيث تفرَّق عنه جلساؤه، فلم يقدرْ أحدٌ أن يدنوَ منه، وكتب به على رأس الكتاب[1]: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم: من هارونَ أميرِ المؤمنين إلى نقفور كلبِ الروم، قد قرأتُ كتابك يا ابنَ الكافرة، والجوابُ ما تراه لا ما تقرؤه، والسلام.

ثم سار من يومه حتى أَناخ بباب هِرَقْلَة، ففتح الحصونَ، وغنم وسَبَى وقتل، فأَرسل إليه نقفورُ يطلب الموادَعَةَ على خراجٍ يؤدِّيه في كلِّ سنة، فصالحه ورجع إلى الرقَّة، فنقض نقفور العهدَ ونزل البَلْخ، فيئس من رجعة هارونَ إليه، ولم يتجاسرْ أحدٌ أن يُخبر هارونَ بما فعل نقفور، فاحتيل له بشاعرٍ من أهل جُدَّة[2]، واسمُه عبدُ الله بن يوسف، فأَنشده: [من الكامل]

نَقَضَ الذي أَعطاكَه نقفورُ ... وعليه دائرةُ البَوارِ تدورُ

أَبشِرْ أميرَ المؤمنين فإنَّه ... غُنْمٌ أَتاك به الإلهُ كبير

فلقد تَباشَرَتِ الرَّعيةُ أنْ أتى ... بالنَّقض عنهُ وافِدٌ وبَشير

أَعطاك جِزيتَه وطأطأَ خدَّه ... حَذَرَ الصَّوارمِ والرَّدى مَحذور

فأَجَرْتَه من وَقْعِها وكأَنَّها ... بأكُفِّنا شُعَلُ الضِّرام تَطير

فصَرَفْتَ بالطَّول العساكرَ قافلاً ... عنه وجارُك آمنٌ مسرور

نقفورُ إنَّك حين تَغدِر إن نأى ... عنك الإمامُ لَجاهلٌ مغرور

أظننتَ حين غَدرتَ أنَّك مُفْلَتٌ ... هَبِلَتْك أمُّك ما ظننتَ غُرور

ألقاك حَينُك في زَواخِرِ بحرِه ... فطَمَت عليك من الإمام بُحور

إنَّ الإمام على اقْتِسارك قادرٌ ... قَرُبَت ديارُك أم نأتْ بك دُور

ليس الإمامُ وإنْ غَفَلْنا غافلاً ... عمَّا يَسوسُ بحَزْمِه ويُدير

---

(١) في المصادر: وتفرق جلساؤه . . . واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبدّ برأيه دونه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب.

(٢) كذا في (خ) والمنتظم ٩/ ١٣٩، وفي مطبوع تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٨: خُرّة، وفي نسخة منه أشار إليها المحقق: جنده، وكذا هي في تاريخ ابن الأثير ٦/ ١٨٥: جنده.

مَلِكٌ تجرَّد للجهاد بنفسه فعدوُّه أبداً به مَقهور
نصحُ الإمامِ على الأنام[١] فريضةٌ ولأهلها كفَّارةٌ وطهورِ

فلمَّا فرغ من إنشادها، قال: أَوَ قد فعلها؟! فكرَّ راجعاً من فوره، فأَناخَ على هِرَقْلَة، فأَرسل إليه نقفورُ وصالحه على ما أَراد هارون. وقال أبو العتاهية: [من الوافر]

أَلَا نادَتْ هِرَقْلَةُ بالخَرابِ من المَلِك المُوَفَّق للصَّوابِ
غدا هارونُ يَرعُدُ بالمنايا[٢] ويَبرُقُ بالمُذكَّرة[٣] القِضاب[٤]
ورايات يَحُلُّ النصرُ فيها تمرُّ كأنَّها قِطَعُ السَّحاب
أميرَ المؤمنين ظَفِرْتَ فاسْلَمْ وأَبشِرْ بالغَنيمَةِ والإياب

**فصل**: وفيها قُتل إبراهيمُ بن عثمانَ بن نَهيك. كان بعد قتل هارونَ لجعفرِ بن يحيى يبكي عليه ويحزن لِمَا جرى على البرامكة، فكان إذا أخذ منه الشرابُ يقول لغلامه: هات سيفي ذا المنيَّة، فيسلُّه ويقوم قائماً، ويصيح: وا جعفراه، وا سيِّداه، واللهِ لآخذنَّ ثأرَك ولأقتلنَّ قاتلَك.

وكان له ابنٌ اسمُه عثمان، فجاء الفضلَ بن الربيعِ فأَخبره، فأخبر الفضلُ الرَّشيد، فقال الرَّشيد: أَدخله، فدخل، فقال له: ماذا يقول [الفضل بن] الرَّبيع؟ قال: صدق، قال: فهل سمع منه هذا أحدٌ غيرك؟ قال: نعم، خادمُه نوال. فدعا نوالاً فسأله، قال: نعم قد قاله غيرَ مرَّة، فقال هارون: ما يحلُّ لي أن أقتلَ وليًّا من أوليائي بقولهما، ولعلَّهما تواصيا على هذا؛ بمنافسة الابنِ على المرتبة ومعاداةِ الخادمِ لطول الصُّحبة.

فترك ذلك أيَّاماً، ثم قال للفضل بنِ الربيع أريد أنْ أمتحنَ إبراهيمَ لأزيل الشكَّ عن خاطري، والوهمَ عن قلبي، فاستدعاه على الشَّراب، وقال للفضل: اِذهب وخلِّني وإياه، فلمَّا أخذ منه الشرابُ قال له: يا إبراهيم، كيف أنت وموضعُ السِّرِّ منك، فقال: إنَّما أنا عبدُك، فقال: إنَّ في نفسي أمراً أريد أن أُودِعَك إيَّاه، وقد ضاق صدري به

(١) في (خ): الإمام، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٩.
(٢) في (خ): للمنايا، والمثبت من تكملة الديوان ص٤٩٢، وتاريخ الطبري ٨/ ٣١٠.
(٣) في (خ): للمذكرة. والمذكر من السيف: ذو الماء. القاموس المحيط (ذكر).
(٤) جمع قضيب، وهو اللطيف من السيوف، والسيف القطَّاع. القاموس المحيط (قضب).

وسهرتُ له ليلي، فقال: إذن أُخفيه عن نفسي، فقال: قد ندمتُ على قتل جعفرِ بن يحيى ندامةً لا أَقدرُ أن أَصفَها، ووددت أنِّي خرجتُ من ملكي وأنَّه بقي، فما وجدت طعمَ النومِ ولا لذَّة العيشِ منذ قتلتُه.

فبكى إبراهيمُ وقال: رحم اللهُ أبا الفضلِ وتجاوَزَ عنه، فلقد أخطأتَ واللهِ في قتله، وأين يوجد في الدُّنيا مثلُه، فقال له الرشيد: قم لعنك اللهُ يا ابنَ اللَّخْناء، فقام وهو لا يَعْقِل، فدخل على أمِّه فقال: يا أُماه، ذهَبَتْ واللهِ نفسي. وأَخبرها الخبرَ وقال: إنَّ الرشيدَ قد امتحنني بمحنةٍ لو كان لي ألف نفسٍ لم أَنجُ منها بواحدة، فدخل عليه ابنُه بعد ليالٍ فقتله.

## جعفرُ بنِ يحيى

ابن خالدِ بن بَرْمَك، أبو الفضلِ البرمكي.

كان من علوِّ القدر، ونفاذِ الأمرِ، وعِظَم المنزلة، وجَلالةِ المَحَلِّ عند هارونَ بحالةٍ لم يشاركْه فيها أحد، وكان جميلاً وسيماً، معتدلَ القامة، ذا وَفْرة، طويلَ العُنق جدًّا، وهو أوَّل مَن زاد في زِيْقه ليَستُرَ عُنُقَه، فقيل: زيقٌ برمكي.

وكان حسنَ الأخلاق، طلقَ الوجه، جودُه وعطاؤه أشهرُ من أن يخفَى، وكان من الفصاحة والبراعةِ والبلاغةِ على حظٍّ وافر.

وكان أبوه قد ضمَّه إلى القاضي أبي يوسُف، ففهَّمه وعلَّمه.

نظر بحضرة الرشيدِ ليلةً في ألف قصَّة، فوقَّع على جميعها، فعرضت على الحكَّام، فلم يجدوه أخطأ ولا في واحدةٍ منها، ولم يخرجْ عن الفقه.

ورُفعت إليه قصَّة من مُتَظَلِّم من عامل، فكتب عليها: بئس الزادُ ليوم المعادِ ظلمُ العباد.

وهو أوَّل مَن ضرب الدنانيرَ الجعفرية، ضرب أوَّلاً في كلِّ دينارٍ مئةَ دينارٍ ودينار[1]، فكان يُطلق المئةَ منها، وكان على أحد جانبَي كلِّ دينارٍ مكتوب: [من المتقارب]

---

(١) في الكلام هنا وما سيذكره بعد قليل من قوله: ثم ضرب في كل دينار ثلاثة مئة دينار: اضطراب. ففي تاريخ بغداد ٨/ ٣٤، ومختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٢ وغيرهما: ولما غضب على البرامكة، وجد في خزانة لجعفر بن =

وأَصفرَ من ضَرْبِ دارِ المملوكِ يلوحُ على وجهه جعفرُ
يزيدُ على مئةٍ واحداً إذا نالَه مُعْسِرٌ يوسِرُ[1]

ثم ضرب في كلِّ دينارٍ ثلاثَ مئةِ دينار، وكان يطلق المئةَ منها.

وأراد الركوبَ إلى دار هارونَ من داره على شاطىءِ دجلة، فأخذ الأَسطُرلاب، فمرَّ ملَّاحٌ على سفينةٍ وهو يقول: [من الوافر]

يدبِّر بالنُّجوم وليس يدري وربُّ النَّجم يفعلُ ما يشاءُ[2]

فضرب بالأَسطرلاب الأرضَ، فكسره وركب.

وكان ينظر إلى الكاتب وهو يكتبُ من بعيد، فيعلم ما يجري به قلمُه، وكذا كان أبوه يحيى.

قال سليمانُ بن الحارث: كنتُ في موكب جعفرِ بن يحيى، إذ اعترضه بهلولُ هارباً من صبيان الكرخِ وبيده حجران، فألقاهما وأخذ بلجام بغلةِ جعفرٍ وقال: [من البسيط]

يا جعفرَ الجودِ والمعروفِ والكرمِ يا كعبةَ الفضلِ والإفضالِ والنِّعمِ
يا مَن إذا السُّحب لم تَسمح بدِرَّتها كانت أناملُهُ أَندَى من الدِّيَمِ
مالي إليك شفيعٌ أَستعين به إلَّا العلاءَ وطيبَ الأصلِ والشِّيَمِ
لله دَرُّك من حرٍّ أخي كرمٍ مُعطي الكثير بلا مَنٍّ ولا سأَمِ

فقال له جعفر: تمنَّ، فقال: تردُّ عليَّ عقلي، قال: لا أقدر على ذلك، قال: فتؤمِّنِّي من الموت، قال: وهذه أَصعب، قال: فتكفيني أولادَ الزِّنى، فقال: هذا مُتَعَذِّر، فقال بُهلول: فما تظنُّ أنَّني أطلب منك؟! كسوةً تفنَى وثوباً يَبلَى، وقد بذلتُ لك ما يبقى؟! إنِّي إذن لَقليلُ الخبرةِ بالتِّجارة. ثم ترك لجامَ بغلتِه ومضى وهو يقول: [من السريع]

ظنَّ ابنُ يحيى أَنني راغبٌ في ماله مالي ولِلمالِ
واللهِ ما أَنصفَ مَدْحي له مَن لم يُبَلِّغنيَ آمالي

---

= يحيى في جرة ألف دينار في كل دينار مئة دينار ... كان جعفر بن يحيى أمر أن تضرب له دنانير في كل دينار ثلاث مئة مثقال وتصور عليها صورة وجهه... إلخ.

(١) انظر تاريخ بغداد، ومختصر تاريخ دمشق، والمنتظم ٩/ ١٤٣ والسير ٩/ ٦٣ .

(٢) التذكرة الحمدونية ٩/ ٣٢١، وفيات الأعيان ١/ ٣٣٩-٣٤٠ . وانظر نفح الطيب ٥/ ٢٩٧.

يـفـنَـى الـذي يُـعـطـي ويـبـقَـى لـه حُـسـنُ أمـاديـحـي وأَقـوالـي

فأتبعه جعفرُ بصرَه وقال: صدقتَ يا أبا محمَّد.

**ذِكر مقتله:**

واختلفوا في سببه على أقوال:

قال الطَّبري[1]: كان الرشيدُ لا يصبر عن أخته العبَّاسةِ بنت المهديّ، وكان يُحضرها إذا جلس للشُّرب، فقال لجعفر: أُزوِّجك إياها ليحلَّ لك النظر، فزوَّجها منه، ثم كان يُحضرهما مجلسَ الشراب، ثم يقوم عن مجلسه ويخلِّيها فيه وهما ثَمِلان، فيجامعها جعفر، فحبلت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسِها من الرَّشيد، فبعثت بالغلام إلى مكَّةَ مع الحواضن من جواريها، وأَرسلت معه بالأموالِ والجواهر، ولم يزل الأمرُ مستتراً عن هارونَ حتى وقع بين العباسة وبعضِ جواريها، فوشت بها إلى الرَّشيد ودلَّته على مكان الصبيِّ بمكَّة، فحجَّ هارون، وأَرسل فأَحضر الحواضن، وسألهنَّ فأخبرْنَه الخبر، فأراد قتلَ الصَّبي، ثم تخوَّف من ذلك، ولمَّا عاد من حجَّته قتل جعفراً.

وقال أحمدُ بن زهير: إنَّ الرشيدَ لمَّا زوَّج أختَه من جعفر، اجتنبها مدَّةً ومنع نفسَه عنها، وأَحبَّته، فدخلت على أمِّه فشكته إليها، وحملت إليها الجواهرَ والهدايا، فوعدتها أن تجمعَ بينهما، فاحتالت عليه أمُّه وقالت: قد اشتريتُ لك جاريةً روميةً من بنات الملوك، ووصفَتْها له. فجاء وهو سكران، فواقعها ولم يعلم، فقالت له: كيف رأيتَ حيلَ بناتِ الملوك؟ وأَخبرته أنَّها العبَّاسة. فأَفاق من سُكره، ودخل على أمِّه وقال لها: لقد بعتيني بثمنٍ بَخْسٍ، وحملتيني على المركب الوَعْر، وسوف ترين. ووضعت العباسةُ غلاماً فبعثَتْ به إلى مكَّة.

وكان يحيى ينهى زُبيدةَ عن صحبة الخدَّام، فشكته إلى الرشيدِ وقالت له: هلَّا غار على حَرَمك، فقال: واللهِ ما أَتَّهمه في حرمي، فقالت: بلى، قد حملَتْ أختُك من جعفرٍ بغلامٍ وبعثت به إلى مكَّة، فقال: اكتُمي هذا، وحجَّ في هذه السَّنة، فقتل الصبيَّ

(١) في تاريخه ٨/ ٢٩٤.

والحواضن، وكان يحيى وأولادُه معه، فلم يُظهرْ لهم شيئاً.

القولُ الثاني: قال أبو محمَّد اليزيدي[1]: دفع الرشيدُ يحيى بنَ عبد اللهِ بنِ حسن بنِ حسنٍ إلى جعفر، فحبسه عنده، ثم دعا به ليلةً فسأله عن شيءٍ من أمره، فأجابه، إلى أن قال له: اتَّقِ اللهَ في أمري، ولا تتعرَّض لأن يكونَ خصمَك غداً محمَّد ﷺ، فوالله ما أحدثتُ حَدَثاً، ولا آويت مُحدِثاً. فرقَّ له جعفرٌ وقال: اذهب حيث شئتَ من بلادِ الله، فقال: كيف أَذهب ولا آمن أن أؤخذَ بعد قليل، فوجَّه معه مَن أدَّاه إلى مأمنه، وبلغ الخبرُ إلى الفضل بنِ الربيع، فأَخبر الرَّشيد، فزبره فقال: لا أمَّ لك، أين أنت وهذا الأَمر، فانكسر الفضل، وجاء جعفرٌ فدخل على الرشيد فتغدَّى عنده، ثم تفاوضا الحديث، فقال له: ما فعل يحيى بنُ عبدِ الله؟ قال: في الحبس والقيدِ الثَّقيل، قال: بحياتي؟ فأَحجم جعفرٌ وهجس في نفسه أنَّه قد علم بشيء، فقال: لا وحياتِك، ولكنِّي أَطلقته وعلمتُ أنَّه لا مكروهَ عنده، فقال: نِعمَ ما فعلت، ما عَدَوتَ ما كان في نفسي، فلمَّا خرج أَتبعه بصرَه وقال: قتلني اللهُ إنْ لم أقتلْك.

وقال إدريسُ بن بدر: فعرض للرَّشيد بعد هذه الواقعةِ رجلٌ وقال: عندي نصيحةٌ لأمير المؤمنين، فأَرسل إليه يقول: ما نصيحتُك؟ فقال: هي سرٌّ من أسرارِ الخلافةِ لا أَذكرها إلَّا له، فقال: عليَّ به، فأُدخل عليه، وقال: أَخلِني، فأُخلي المجلس، فقال: رأيتُ يحيى بنَ عبد الله بنِ حسنٍ بحلوانَ في خان، عليه دُرَّاعة صوفٍ وهو قائمٌ يصلي، ومعه جماعةٌ يُظهرون أنَّهم ليسوا معه، فقال: أَوَ تعرفه؟ قال: نعم، قال: صِفْه لي، قال: مَرْبوعٌ، أسمرُ رقيق السُّمْرَة، كبيرُ البطن، قال: صدقت. فأعطاه ألفَ دينارٍ وقال: اكتُم هذا.

والثالث: قال الهيثم: كان سببُ قتلِ جعفرٍ أنَّ الرشيدَ أخذ بيده يوماً، ثم اخترق به حُجَرَ نسائه حتَّى انتهى إلى باب مجلس، فأَخرج مفتاحاً من تِكَّته وفتح الباب، وإذا في صدره بابٌ صغير، فنقره، قال جعفر: فسمعتُ غناءً على عودٍ ما سمعتُ أَطيبَ منه، ثم قمنا وأغلق الباب، وقال لي: يا جعفر، أسمعتَ غناءً كذا، قلت: لا والله، قال: هذه

(١) في (خ): الزيدي، والتصويب من تاريخ الطبري ٨/ ٢٨٩، والمنتظم ٩/ ١٢٧.

عُلَيَّة أختي بنتُ المهدي، واللهِ لئن نطقتَ بهذا لأَقتلنَّك، وجاء جعفرٌ فحدَّث أباه، فقال: واللهِ ليقتلنَّك، وكان هارونُ قد حجر على عُلَية، وأظهر أنَّها قد هلكت؛ لأجل معاشرتها للخدَّام، فتحدَّث بذلك جعفر، فقتله.

والرابع: قال الحسنُ بن عليِّ بنِ عيسى: [الشَّرَهُ][1] قَتَلَ جعفراً، فقيل له: الناسُ يقولون: إنَّ ذَنْبه أمرُ بعضِ أَخوات الرشيد! فقال: هذا من رواية الجهَّال، مَن كان يَجسُر على الرشيدِ بهذا! إنَّما كان جعفرٌ قد حاز ضِياع الدُّنيا لنفسه، وكان الرشيدُ إذا سافر لا يمرُّ بضيعةٍ أو بستانٍ إلَّا قيل: هذا لجعفر، فبقي ذلك في نفسه، ثم جنى على نفسه بأن وجَّه برأس بعضِ الطالبيين في يوم نوروزَ من غير أن يأمرَه الرشيدُ بقتله، فاستحلَّ بذلك دمَه.

الخامس: أنَّ أحداً لم يعلم ذنبَ جعفر. قالت عُلَية بنت المهدي للرشيد: ما رأيتُ لك يومَ سرورٍ منذ قتلتَ جعفراً، فلأيِّ شيءٍ قتلته؟ فقال: لو علمتُ أنَّ قميصي يعلم السببَ الذي قتلتهُ لأجله لأَحرقته، وكان يحيى بنُ خالدٍ يكره مداخلةَ جعفرٍ للرَّشيد وينهاه عن مُنادَمَته، ويقول: يا أميرَ المؤمنين، إنِّي واللهِ أكره ذلك، ولست آمن أن ترجعَ العاقبةُ عليَّ فيه منك، فلو أَعفيتَه، واقتصرتَ به على ما يتولَّاه من جسيم أعمالِك، كان ذلك واقعاً بموافقتي، فقال له الرَّشيد: ليس بكَ هذا، وإنَّما تريد أن تقدِّم عليه الفضلَ ابنَك. وكان يحيى يحبُّ الفضلَ حبّاً شديداً. فحكى الطبريُّ[2] أنَّ يحيى حجَّ تلك السنة وتعلَّق بأستار الكعبةِ وقال: اللهمَّ إنْ كان رضاك في أن تسلبَني أهلي وولدي، فاسلبني إلَّا الفضل. وكان الرشيدُ عاتباً على الفضلِ لتركه الشُّربَ معه، وكان الفضلُ يقول: لو علمتُ أنَّ الماءَ يَنْقُص من مروءتي لَمَا شربته. وكان جعفرٌ يتوقَّى مخالفةَ الرشيد.

واختلفوا في كيفية قتله؛ فقال الفضلُ بن سليمانَ بنِ عليّ: لمَّا رجع الرشيدُ من

(١) ما بين معكوفين من المنتظم ٩/ ١٣٢.

(٢) في تاريخه ٨/ ٢٩٢.

الحجِّ نزل العُمْرَ بناحية الأَنبار، فلمَّا كان ليلةُ السبتِ لانسلاخ المحرَّم، أَرسل مَسْروراً الخادمَ ومعه أبو عصمةَ وجماعةٌ من الجند، فأَحاطوا به، ودخل مسرورٌ وعنده ابنُ بختيشوع المتطبِّب، وأبو زكَّار الأعمى يغنِّيه، قال: [من الوافر]

فلا تَبْعَد فكلُّ فتًى سيأتي ... عليه الموتُ بَطْرُق أو يُغادي[1]

وقال مسرورٌ: فقلت: يا أبا الفضل، قد طرقك [و]اللهِ الذي جئتُ له، أَجِب أميرَ المؤمنين. قال: فوقع على رِجلَيَّ يقبِّلهما ويقول: حتى أدخلَ أُوصي، فقلت: أمَّا الدخولُ فلا سبيلَ إليه، ولكن أَوصِ بما شئت. فأوصَى وأعتق مماليكَه، وأتتني رسلُ أميرِ المؤمنين تستحثُّني، فمضيت به إليه، وأَعلمته وهو في فراشه، فقال: ائتني برأسه.

فخرجتُ فأَخبرت جعفراً، فقال: يا أبا هاشم، اللهَ اللهَ في أمري، ما أَمرك إلَّا وهو سكران، فدافِعْ بي حتى يطلعَ الصَّباح، وآمِرهُ فيّ، فعدتُ إلى الرَّشيد لأُؤامرَه، فقال: يا ماصّ، ائتني برأسه. فخرجتُ إلى جعفرٍ فأخبرته، فقال: عاوِدْه بالله. فعاودتُه، فحذفني بعمودٍ ثم قال: نُفيتُ من المهديِّ لَئن لم تأتِني برأسه، لأُرسلنَّ إليك مَن يأتيني برأسك. فخرجتُ إليه فأتيتُه برأسه.

وقال أبو زكَّار: كنتُ [عند][2] جعفرٍ وهو يتغنَّى بهذا الشِّعر: [من الوافر]

فلا تَبْعَدْ فكلُّ فتًى سيأتي ... عليه الموتُ يَطْرُقُ أو يُغادي
وكلُّ ذَخيرةٍ لا بدَّ يوماً ... وإنْ بَقِيت تصير إلى نَفادِ
فلو فُوديتَ من حَدَث الليالي ... فديتُك بالطَّرائف والتِّلاد

فقلت له: يا سيِّدي، ممن أخذتَ هذا الشِّعر؟ فقال: من أحسنِ الناسِ شعراً، مِن حَكَمِ الوادي[3]. فما قام من موضعه حتى جاءَ مَسْرورٌ غلام الرشيدِ فأخذ برأسه.

وقال أبو معشر: لمَّا نزل الرشيدُ بالعُمْر، نزل جعفرٌ عند المأمون، وخرج الرشيدُ في اليوم الذي قتل جعفراً في ليلته إلى الصَّيد وجعفرٌ معه، فجاءَ به وغلَّفه بالغالية بيده وعانقه وقال: قد عزمتُ الليلةَ على الجلوس مع النِّساء، فاخلُ أنت الليلةَ مع نسائك

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٩٥، المنتظم ٩/ ١٣٣، الكامل ٦/ ١٧٧-١٧٨، البداية والنهاية ١٣/ ٦٤٢.

(٢) ما بين معكوفين من تاريخ الطبري والمصادر.

(٣) هو الحكم بن ميمون مولى الوليد بن عبد الملك. انظر ترجمته في الأغاني ٦/ ٢٨٠.

ولذَّ واطرب؛ لتكونَ مثلَ حالي. ومضى هارونُ إلى الصَّيد، وعاد إلى المنزلِ وجعل يبعث بالهدايا والألطافِ إلى جعفرٍ عامَّةَ الليل، ثم بعث إليه مسروراً في آخر الليلِ فقتله.

وقال أبو حسَّان الزِّيادي: إنَّما قتل جعفراً ياسرٌ الخادم، جلس هارون على كرسيٍّ وقال لياسر: اِذهب فأتِني بجعفر، فجاء وعنده أبو زكَّارٍ الأعمى وهو يغنِّيه: [من مجزوء الرمل]

مـا يُـريـد الـنـاسُ مـنَّـا ... مـا يـنـامُ الـنـاسُ عـنَّـا
إنَّـمـا هـمُّـهـمُ أنْ ... يُـظـهـروا مـا قـد دفـنَّـا[1]

فهابه ياسر، فرجع إلى هارونَ، فقال: ويحك أَندُبك لأمرٍ ما ندبتُ إليه أعزَّ مَن عندي وتتوقَّف! واللهِ لَئن لم تأتِني برأسه لأقتلنَّك.

فرجع إلى جعفرٍ وجاء به إلى باب الدِّهليز، وقال لياسر: هو سكران، فشاوِرْه في حضوري بين يديه. فدخل فشاوره، فقال: إنْ حضر عندي لم أقتلْه، أُخرج فأتِني برأسه، وسمعه جعفر، فأَخرج منديلاً من كمِّه فعصب به عينَيه ومدَّ عنقَه، فضربه ياسرٌ فأبان رأسَه، ودخل به إليه، فقال هارونُ لبعض غِلمانه: اِضرب عنقَ ياسر؛ فإنِّي لا أَقدر أن أنظرَ إلى مَن قتل جعفراً، فضرب عنقَه.

وكان قتلُه ليلةَ السبتِ أولَ ليلةٍ من صفرٍ سنةَ سبعٍ وثمانين ومئة، هو ابنُ سبعٍ وثلاثين سنة، وكانت وِزارتُه سبعَ عشرةَ سنة.

وقال الأصمعيّ: كنت تلك الليلةَ في المعسكر، فاستدعاني هارونُ في تلك الساعةِ، فدخلتُ عليه وهو مُطرِقٌ واجمٌ قد ذهب نشاطُه، فرفع رأسَه إليَّ وقال: [من الكامل]

لـو أنَّ جـعـفـرَ خـاف أسـبـابَ الـرَّدى ... لَـنـجـا بـمُـهْـجَـتـه طِـمِـرٌّ[2] مُـلْـجَـمُ

(١) مروج الذهب ٦/ ٣٩٥، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٨، ومرآة الجنان ١/ ٤٢١.

(٢) في (خ): فنجا، والمثبت من مروج الذهب ٦/ ٣٩٩، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٩، ومختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٧، والطمر: الفرس الجواد. القاموس (طمر).

ولَكان مِن حَذَرِ المَنون بحيث لا يرجو اللَّحاقَ به الغرابُ الأَعْصَم[١]
لكنَّه لمَّا تقارب يومُه لم يَدفع الحَدَثان عنه مُنَجِّم

ثم أمر بكشف الطَّشت، فإذا فيه رأسُ جعفرِ بن يحيى، فقال: انظره، ثم قال: قُمْ فاخرج.

وقال ثُمامَةُ بن أَشْرَس: بتُّ ليلةً عند جعفرِ بن يحيى، فبكى في منامهِ ثم استيقظ، فسألتُه عن بكائه، فقال: أتاني الساعةَ آتٍ في منامي، فأخذ بعَضَادتَي البابِ وقال: [من الطويل]

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا أَنيسٌ ولم يَسمُرْ بمكَّةَ سامرُ

فقال مجيباً له:

بلى نحن كنَّا أهلَها[٢] فأَبادنا صُروفُ الليالي و الجُدودُ العَواثرُ[٣]

فما مضت الأيامُ حتى قُتل رحمه الله.

ولمَّا قُتل جعفر، أمر هارونُ في تلك الليلةِ أن يُحتاطَ على يحيى بنِ خالدٍ وولدِه ومواليه ومَن يلوذ به، ويُحْبَسَ هو وولدُه الفضل، وأخذ ما وجد لهم من مالٍ وضِياع ومتاعٍ ودوابَّ وغيرِ ذلك، ووجَّه من ليلته إلى الرقَّة فقبض ما كان لهم.

وقال سهلُ بن هارون: كنت قاعداً أكتب بين يدي يحيى بنِ خالد، وإذا برجلٍ قد دخل فقال: قَتل هارونُ جعفراً، فما زاد يحيى على أنْ رمى القلَم من يده وقال: هكذا تقوم الساعةُ بَغْتَةً.

وضمَّ هارون من وقته يحيى بنَ خالدٍ والفضلَ ومحمَّداً وخالداً بني يحيى، وعبدَ الملك ويحيى وخالداً بني جعفر، والعاص ومزيداً وخالداً بني الفضل، وجعفراً وزيداً ابنَي محمَّد بن يحيى، وإبراهيمَ ومالكاً وجعفراً وعُمرَ بني خالدِ بن يحيى، وبعث بهم إلى الرَّقة.

---

(١) في الوفيات ومختصر تاريخ دمشق: القشعم. والأعصم: الأحمر الرجلين والمنقار، أو الذي في جناحه ريشة بيضاء. والقشعم: الضخم. القاموس المحيط (عصم)، (قشعم).

(٢) في (خ): أهلنا، والمثبت من مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٥، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٥٧.

(٣) في (خ): الغوابر.

قال سهل: واستدعاني هارونُ في الوقت، فدخلت عليه والسيفُ مَشْهُورٌ في يده، فقال: إيه يا سهلُ، مَن كفر نعمتي وجانب موافقتي أَعجلتُه عقوبتي. قال: فلم أُحِر جواباً، فقال: ليُفْرِخ رَوْعُك، ويَسْكُن جأشُك، وتَطِب نفسُك، وتسكن حواسُّك؛ فإنَّ الحاجةَ إليك ماسَّة. فاقتصرَ على الإشارة دون العبارة، ثم أَشار إلى مَصْرَع جعفرٍ وقال: [من مجزوء الكامل]

مَـن لـم يُـؤدِّبْـه الـجـمـيـ ـلُ، فـفـي عُـقـوبـتـه صَـلاحُـهْ[1]

وبعث هارونُ بجيفة [جعفر] إلى بغدادَ مع هَرْثَمةَ بنِ أَعيَن، وقُطِّعت جثَّته، فنُصب رأسُه على الجسر الأَوسط، وقطعةٌ منه على الجسر الأعلى، وقطعةٌ منه على الجسر الأَسفل، وكتب هارونُ إلى السِّنْديِّ فتولى ذلك، وأمر بالنِّداء: لا أمانَ لمن آوى البرامكة، إلَّا لمحمَّد بن خالدٍ وولدِه وحَشَمه؛ لأنَّ محمَّداً لم يدخل فيما دخل فيه غيرُه من البرامكة، وحمل يحيى بنَ خالدٍ وولدَه الفضلَ وبعضَ أهلِه فحبسهم في الدَّير القائمِ بالرَّقة، وجعل عليهم حَفَظَة، وولي أمرَهم هَرْثَمَةُ ومَسْرور.

وقتل هارونُ لمَّا قدم الرقَّة أنسَ بنَ أبي شيخ، وكان أحدَ أصحابِ البرامكة، وكان يُرمى بالزَّندقة، ولمَّا قُتل قال هارون: [من البسيط]

تَـلَـمَّـظ الـسـيـفُ مـن شَـوقٍ إلـى أنـسٍ فـالـسـيـفُ يَـلْـحَـظُ والأقـدارُ تَـنْـتَـظِـرُ[2]

ولم يزل جعفرٌ مَصْلوباً حتى عزم هارونُ على الخروجِ إلى خُراسان، فأمر السِّنديَّ ابنَ شاهك أن يحرقَ جثَّته، فجمع حطباً وشوكاً وأَحرقه.

وذكر الصُّولي فقال: اِفْتَصَد جعفرٌ في يوم الثُلاثاء، فخلع على نُدمائه وخواصِّه خِلَعاً بلغت سبعةَ عشرَ ألفَ دينار، فوجد ذلك في دفاتر الحسابِ، وتحته مكتوب: سبعةُ دراهمَ اشترى بها نفطاً لِإحراق جثَّته، فقال الناسُ: إنَّ في ذلك لَعِبرة.

وقال سهلُ بن هارون: دخل الرشيدُ بغدادَ بعد قتل جعفرٍ وصلبِه، وأنا عن يمينه

(١) العقد الفريد ٥/ ٥٩ـ٦٠.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٢٩٧، والبيت لصريع الغواني مسلم بن الوليد، وهو في ذيل ديوانه ص٣١٤.

وعبدُ الملك بنُ الفضلِ عن يساره وجعفرٌ مصلوب، فاستقبلنا عينَ الشمس وكأنَّها طلعت من وجه جعفرٍ أو من حاجبه، فاربدَّ وجهُ هارون، فقال له عبدُ الملك: لقد عَظُم ذَنْبٌ لم يَسَعْه عفوُ أميرِ المؤمنين، فقال هارون: مَن وَرَد غيرَ مائه صدر بدائه، ومَن يعملْ على شاكلته يوشكْ أن يقومَ على راحلته[1]. ثم أمر بالنِّفط، فأُحرق وهو يقول: لَئن ذهب أَثَرُك لقد بقي خَبَرُك، ولَئن حُطَّ قدرُك لقد علا ذِكرُك.

وقال هشام: ودخل أبو الهيثمِ على يحيى بنِ خالدٍ وهو يقرأ في المصحف، فوقف على رأسه وقال: إنَّه قتل ولدك، فقال: يُقتل ولدُه، فقال: قد أمر بخراب دارِك، قال: تُخْرَب دورُه. فهتك أبو الهيثم السُّتورُ وجمع المتاع، فقال يحيى: هكذا تقومُ الساعة. فعاد أبو الهيثم إلى هارونَ فأَخبره بما قال، فأطرق رأسَه مفكِّراً وقال: إنَّا لله، واللهِ ما قال شيئاً إلَّا ورأيتُه كما قال.

وقال أبو حسَّانَ الزِّيادي: كان هارونُ قد احتاط على آل برمكٍ ليلةَ قتل جعفراً، وأخذهم أخذةً رابيةً، وحبسهم بالرقَّة، وبلغ يحيى فقال: أنا بقضاءِ اللهِ راض، وبالخيرة منه عالم، ولا يؤاخذ اللهُ العبادَ إلَّا بذنوبهم، وما ربُّك بظلَّام للعبيد، وما يعفو عنه أكثرُ ولله الحمد.

**ذِكر أقوالِ النَّاس في البرامكةِ ومراثيهم:**

قال سعيدٌ الزُّهريُّ: لمَّا صُلب جعفرٌ وقف الرَّقاشيُّ الشاعر فقال[2]: [من الوافر]

هَـذَا الـخـالـونَ مِـن شَـجْـوي فـنـامـوا ... وعـيـنـي مـا يَـلَـذُّ لـهـا الـمـنـامُ

وهـذا جـعـفـرٌ بـالـجِـسْـر تَـمـحـو ... مَـحـاسِـنَ وجـهِـه ريـحٌ قَـتَـامُ

---

(١) في العقد الفريد ٥/ ٦١: ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته.

(٢) الأغاني ١٦/ ٢٤٨-٢٤٩، تاريخ بغداد ٨/ ٣٧، المنتظم ٩/ ١٣٦، الحماسة البصرية ١/ ٢٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠، مرآة الجنان ١/ ٤٢٢.

وقد نسبت الأبيات في تاريخ بغداد ٨/ ٣٦-٣٧، ومختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٤-١٠٥ لأبي قابوس النصراني، ونسبها الطبري في تاريخه ٨/ ٣٠١ لأبي عبد الرَّحمن العطوي، ونسبها صاحب العقد الفريد ٥/ ٧٠ لسليمان الأعمى. وقال المرزباني في معجمه ص١٨١: وقد رويت لأبي قابوس الحيري، والصحيح أنها للرقاشي. اهـ.

أقول له[1] وقمتُ لديه نَصْباً ... إلى أنْ كاد يَفْضَحُني القِيام
أَما واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفة لا تنام
لطُفنا حولَ جِذعِك واستلَمْنا ... كما للنَّاس بالحَجَر استلام
فما أَبصرتُ قبلَك يا ابنَ يحيى ... حساماً فلَّه السَّيفُ الحُسام
أمرُّ به فيَغْلِبُني بُكائي ... ولكنَّ البكاءَ له اكْتِتام
على اللذَّات والدُّنيا جميعاً ... لدولة آلِ برمكٍ السَّلام

وبلغ الرشيد، فأَحضره وقال: ما حَمَلَك على ما صنعت؟ فقال: تحرَّكت نعمتُه في قلبي فلم أَصبر، فقال: كم أعطاك؟ فقال: كان يُعطيني في كلِّ سنة ألفَ دينار، فأَمر له بألفَي دينار.

وقال مصعبُ بن عبد الله: لمَّا قُتل جعفرٌ وصُلب بباب الجسر، جاءت امرأةٌ على حمارٍ فارِه، فوقفت عليه وقالت بلسانٍ فصيح: أَمَا واللهِ لَئن صرتَ اليومَ آية، لقد كنتَ في المكارم الغاية، ولَئن زال مُلكُك وخانَك دهرُك، لقد كنتَ المَغْبوطَ حالاً، الناعمَ بالاً، ولقد استعظم الناسُ فَقْدَك، حيث لم يجدوا بعدك مثلكَ، فنسأل اللهَ الصبرَ على عظيم الفجيعة، وجليلِ الرزيَّة، فعليك منِّي السلام، وداعَ غيرِ قالٍ ولا ناسٍ لذكرِك. ثم أنشأتْ تقول: [من الطويل]

فلمَّا رأيتُ السيفَ خالط جعفراً ... ونادى مُنادٍ للخليفة في يحيى
بكيتُ على الدُّنيا وأيقنتُ أنَّما ... قُصارى الفتى يوماً مُفارقةُ الدنيا
وما هي إلَّا دولةٌ بعد دولةٍ ... تُخوِّل ذا نُعمى وتُعقِب ذا بلوى
إذا نزَلَتْ هذا منازلَ رِفعةٍ ... من المُلْك حطَّت ذا إلى الغاية القُصوى[2]

ثم حرَّكت حمارَها، فكأَنَّها كانت ريحاً لم يُعرف لها أثر.

وفيه يقول الرَّقَاشيُّ الشاعر: [من الطويل]

---

(١) في (خ): لديه، وهو خطأ.

(٢) تاريخ بغداد ٨/ ٣٨، والمنتظم ٩/ ١٣٧. والبيتان الأولان لدعبل الخزاعي كما في العقد الفريد ٥/ ٧٠، والوافي بالوفيات ١١/ ١٦٢، وذيل ديوانه ص١٩٤. وقد جعلها كلها له ابن خلكان ١/ ٣٤٠-٣٤١.

أيَا[١] سبتُ يا شرَّ السُّبوت صَبيحةً ... ويا صَفَرُ المشؤومُ ما جئتَ أشأما
أتى السبتُ بالأمر الذي هَدَّ رُكْنَنا ... وفي صفرٍ جاء البلاءُ مُصَمِّما

وله، ويقال إنَّها لأبي نُواس[٢]: [من الطويل]

الانَ[٣] استَرَحْنا واستراحت رِكابُنا ... وأَمسكَ مَن يُجدي ومَن كان يَجتدي
فقل للمطايا قد أَمِنتِ من السُّرى ... وطَيِّ الفَيافي فَدْفَداً بعد فَدْفَدِ
وقل للعطايا بعد فَضْلٍ تعطَّلي ... وقل للرَّزايا كلَّ يومٍ تَجَدَّدي

وقال الرَّقَاشي: [من الكامل]

يا آلَ بَرْمَكَ كم لكمْ من نائلٍ ... وندًى كعَدِّ الرَّمْلِ غيرَ مُصَرَّدِ[٤]
إنَّ الخليفةَ لا يُشَكُّ أخوكمُ ... لكنَّه في بَرْمَكٍ لم يولَدِ
نازعتموه رَضاعَ أكرمِ حُرَّةٍ ... مَخْلوقةٍ من جوهرٍ وزَبَرجد
كانت يداً للجود حتى غلَّها ... قَدَرٌ فأضحى الجودُ مَغْلولَ اليد[٥]

وقال أبو العتاهِيَة: [من المنسرح]

قولا لمَن يرتجي الحياةَ أَمَا ... في جعفرٍ عِبرةٌ ويَحْياهُ
كانا وزيرَي خليفةِ اللهِ ها ... رونَ هما ما هما خليلاه
فذاكمُ جعفرٌ برُمَّته ... في حالقٍ رأسُه ونصفاه
والشيخُ يحيى الوزيرُ أصبح قد ... نحَّاه عن نفسِه وأَقصاه
شتَّت بعد التجميعِ[٦] شملَهمُ ... فأَصبحوا في البلادِ قد تاهوا

---

(١) في (خ): يا، والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٠.

(٢) كذا في تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٠ على التردد، والأبيات ليست في ديوان أبي نواس، وقد نسبها للرقاشي صاحب ديوان المعاني ٢/ ١٧٩، والتذكرة الحمدونية ٤/ ٢٠٩-٢١٠، ووفيات الأعيان ١/ ٣٤٦، ونسبها المسعودي في مروج الذهب ٦/ ٤٠٢ لأشجع السلمي.

(٣) في (خ): لئن، وهو خطأ.

(٤) التصريد: التقليل. القاموس المحيط (صرد).

(٥) تاريخ الطبري ٨/ ٣٠١.

(٦) في (خ): الجميع، والمثبت من تكملة الديوان ص٦٦٧، وتاريخ الطبري ٨/ ٣٠٢.

كذاك[١] مَن يُسخط الإلهَ بما يُرضي به العبدَ يَجزِه الله
سبحانَ مَن دانَتِ الملوكُ له أشهد أنْ لا إلـه إلَّا هو[٢]
طوبَى لمَن تاب بعد[٣] غِرَّته فتاب قبلَ المماتِ طوباه

ووُجد على قصر عليِّ بن عيسى بنِ ماهانَ بخُراسانَ صبيحةَ اليومِ الذي قُتل فيه جعفرٌ مكتوباً: [من السريع]

إنَّ المَساكين بني بَرْمَكٍ صُبَّت عليهم غِيَرُ الدَّهرِ
إنَّ لنا في أمرهم عِبْرَةً فلْيتَّعظْ ساكنُ ذا القصر[٤]

ووُجد مكتوباً على قصر الفضلِ بن الربيع: [من الخفيف]

ما رعى الدَّهرُ آل برمكَ لمَّا أنْ رمى مُلْكَهم بأمرٍ فَظيعِ
إنَّ دهراً لم يَرْعَ حقًّا ليحيى لم يكن راعياً لآل الرَّبيع[٥]

وقال أَشْرَسُ بن ثُمامَة: [من الكامل]

في آل برمكَ عِبرةٌ لكمُ لو كان يَعمل فيكم الفِكرُ[٦]
مَنَحَتهم الدُّنيا خزائنَها واختصَّهم بصفائه الدَّهر
حتى إذا بلغوا السُّها شَرَفاً عزًّا[٧] وقصَّر عنهم الفخر
عزَّ[٨] الزمانُ بهم فجعفرُهمْ بعدَ الحِجابِ محلُّه الجِسر
وتمزَّقوا من بين مُصطَلَمٍ ومُكَبَّل قد ضمَّه الأَسْر

(١) في (خ): كذا.
(٢) في (خ): إلا الله.
(٣) في (خ): لمن مات قبل، والمثبت من الطبري ٨/ ٣٠٢.
(٤) مروج الذهب ٦/ ٣٩٩-٤٠٠، والتذكرة الحمدونية ٩/ ٣٢٣، ووفيات الأعيان ١/ ٣٤٠، ومرآة الجنان ١/ ٤٢٢.
(٥) البيتان لأبي حزرة الأعرابي أو لأبي نواس كما في مروج الذهب ٦/ ٤٠٣-٤٠٤، ووفيات الأعيان ٤/ ٣٨، والوافي بالوفيات ٢٤/ ٣٩. وهما في البيان والتبيين ٣/ ٣٥٢ دون نسبة.
(٦) في مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٥:

في آل برمك للورى عظة لو كان يعمل فيهم الفكر

(٧) في (خ): وعزًّا، وفي مختصر تاريخ دمشق: حقًّا
(٨) في (خ): غير.

وقال إسحاقُ الموصلي : خرج هارونُ ليلةً فوقف على الجسر، وأومأَ إلى جثَّة جعفرٍ وقال: [من المتقارب]

تقاضاكَ دهرُك ما أَسْلَفا ... وكُدِّر عيشُك بعد الصَّفا
فلا تَعْجَبَنَّ فإنَّ الزَّمانَ ... رَهينٌ بتفريق ما أَلَّفا[١]

قال إسحاق: فلمَّا نظرتُ إلى جعفرٍ على تلك الحال، حرَّكتني أَياديه، فقلت: لَئن أصبحتَ للناس آية، لقد كنتَ في الجود الغاية. فغضب هارون، ونظر وهو كالجَمَل الصَّؤول وقال: [من السريع]

ما يَعْجَبُ العالَمُ من جعفرٍ ... ما عايَنوه فبنا كانا
مَن جعفرٌ أو مَن أبوه ومَن ... كانت بنو بَرْمكَ لولانا[٢]

وكان هارونُ إذا ذكر قولَ جعفرٍ: [من الخفيف]

فاغتبِقْ واصطَبحْ فقد صانني اللـ ... ـهُ إذ صُنتَني من الحَدَثانِ[٣]

يقول: واللهِ ما صانه من الحَدَثان، ولقد كَمَنتُ له كُمونَ الأُفْعُوانِ في أُصول الرَّيحان، حتى إذا جاءه الشَّمُّ تلقَّاه بالسَّمّ.

وقال سهلُ بن هارون: استصفى الرشيدُ أموالَ البرامكة، وأُحصيت فكانت ثلاثين ألفَ ألفٍ وستَّ مئة وستِّين ألفاً، غيرَ الجواهرِ والمتاع والحُليِّ والثيابِ والدوابّ، وصار حَرمُهم يعيشون في صدقات مَن عاش في صدقاتهم.

وقال أبو الفضلِ ميمونُ بن هارون: حَدثتني أميةُ البرمكيةُ قالت: الناسُ يُكثرون في قصَّة البرامكة، وأَوكد الأسبابِ فيما نالهم أنَّ جعفرَ بن يحيى اشترى جاريةً مغنيةً يقال لها فنفنة[٤]، لم يكن لها في الدُّنيا نظيرٌ في الغناء وحُسنِ الخلق وسخاوةِ النَّفس، وكان

(١) مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٦ . وقد نسبهما المرزباني في معجمه ص٣٥٥ لمحمد بن يحيى اليزيدي، ونقله عنه الصفدي في الوافي٥/ ١٨٣-١٨٤. ونسبهما الصولي في أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق ص٨٤ لعبد الله بن موسى الهادي.

(٢) مختصر تاريخ دمشق، والبداية والنهاية ١٣/ ٦٥٧ .

(٣) غرر الخصائص الواضحة ص٤٤٤، والوافي بالوفيات ١١/ ١٦٤ باختلاف في الرواية.

(٤) في (خ): فتنة، وفي مطبوع المنتظم ٩/ ١٣٠ : فتينة، والمثبت موافق لنسخة الأصل منه، وللبداية والنهاية ١٣/ ٦٤٥ .

ابنُ جامعٍ إذا سمعها بكى ما دامت تغنِّي، وكان شراؤها على جعفرٍ مئةَ ألفِ دينار، فطلبها الرشيدُ منه، فلم يدفعْها إليه. فلم يكن إلَّا قليلٌ حتى نزل بهم ما نزل، وأُخذت الجاريةُ في جملة مَن أُخذ وجُمع الجواري العوامل.

قالت أمية: ثم إنَّ الرشيدَ جلس لنا، فأُدخلنا عليه وبيد كلِّ واحدةٍ منَّا ما تعمل به، فأَقبلَ يأمر كلَّ واحدةٍ واحدِة فتغنِّي، حتى بلغ إلى فنفنة، فقال لها: غنِّي، فامتنعت وقالت: أمَّا بعد السادِة فلا، فقلنا لها ونحن نُرْعَد من الخوف: ويحكِ غنِّي، فأسْبَلَتْ دَمْعَها، فنظر هارونُ إلى أقبحِ مَن على رأسه ـ وهو الحارثُ بن سحر[1] ـ وقال: خذها فقد وهبتُها لك، فأخذ بيدها وأقامها. فلما ولَّى الحارث، دعاه فأسرَّ إليه سرًّا ألَّا يَقربَها، عَلِمنا بعد ذلك، ومكثنا أيَّاماً، فاستحضرنا وقال للحارث: أين فلانة؟ فأَحضرها، وقال لها: غنِّي، قالت: أمَّا بعد السَّادة فلا. فأمر بإحضار السيفِ والنِّطع، وقال للسيَّاف: إذا أشرتُ إليك فاقتلها، وقال لها: غنِّي، فبكت وقالت: أمَّا بعد السادةِ فلا، ولم يبقَ إلَّا أن يشيرَ إلى السيَّاف، فقلنا لها: ويحك غنِّي، وناشدناها اللهَ في نفسها، فأَخذت العودَ واندفعت تقول: [من المنسرح]

لـمَّـا رأيـتُ الـدِّيـارَ قـد دَرَسَـت ... أَيـقـنـتُ أنَّ الـنَّـعـيـمَ لـم يَـعُـدِ

قال: فوثب الرشيدُ قائماً وأخذ العودَ من يدها، وأَقبل يضرب وجهها ورأسَها حتى تفتَّت، وجرت الدِّماءُ على وجهها وثيابِها، وحُملت من بين يديه، فمكثت ثلاثاً ثم ماتت رحمها اللهُ تعالى.

وقال محمَّد بن عبد الرَّحمنِ الهاشمي: دخلتُ على أمِّي في يومِ أَضحى وعندها امرأةٌ بَرْزةٌ في أثوابٍ رَثَّة، فقالت لي: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هذه عُبادةُ أمُّ جعفرِ بن يحيى. فسلَّمتُ عليها ورحَّبت بها، وقلتُ لها: حدِّثيني ببعض أمرِكم، فقالت: أَذكر لك جملةً كافية [فيها][2] اعتبار لمَن اعتبر، وموعظةٌ لمن فكَّر، لقد هجم عليَّ مثلُ هذا العيدِ وعلى رأسي أربعُ مئةِ وصيفةٍ، وأنا أَزعم أنَّ ابني جعفراً لي عاقّ، وقد أتيتُكم اليومَ أسألكم جِلدَ شاتَين أجعل أَحدَهما شِعاراً والآخَر دِثاراً.

(١) كذا في (خ)، وفي المنتظم ٩/ ١٣٠: بسيحر.

(٢) زيادة من مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٠٥.

وكان جعفرٌ مُحْسِناً إلى العلماءِ؛ مثلِ سفيانَ بن عيينةَ والفضيلِ بن عياضٍ والأصمعيّ، ولمَّا قُتل جعفر، بكى سفيانُ بن عيينةَ وقال: اللهمَّ كان قد كفاني مؤونةَ الدُّنيا فاكفِه مؤونةَ الآخرة.

وقال العُتْبي: قال الرشيدُ بعد البرامكة: وَدِدتُ واللهِ أنِّي شوطرتُ عُمري، وغَرِمت نصفَ مُلكي؛ وأنِّي تركتُ البرامكةَ على أمرهم، لعن اللهُ مَن أغراني بهم؛ فإنِّي واللهِ ما وجدتُ راحةً بعدهم ولا رأيت خيراً.

وكان هارونُ قد ولَّى الفضلَ بن يحيى خراسان، ثم عزله بعليِّ بن عيسى بنِ ماهان، وكان عليٌّ زوجَ ابنةِ يحيى بنِ خالد، وكان عدواً للفضل بنِ يحيى وإخوتِه، فجمع عليٌّ أموالَ خراسانَ واتَّخذ أكياساً حُمْراً وصُفراً وخُضراً، وجعل في كلِّ كيسٍ ألفَ درهمٍ وألقاها في دار العامَّة، وخرج هارونُ فنظر إليها فأعجبته، فقال ليحيى: يا أبي، أين كان أخي الفضلُ عن هذه الأموال؟ فقال له يحيى: إنَّ الفضل وفَّر هذه الأموالَ على أَربابها وأعطاهم أموالَه زيادةً عليها ليتمسَّكوا بطاعتك، ويكونوا عُدَّةً لك على عدوِّك، وهذه أموالُ قومٍ قد ظلموا وعَدَوا، واللهِ لَتُنفقنَّ مكانَ كلِّ درهمٍ ديناراً، ثم لا يُغنيك ذلك حتى تباشرَ الأمرَ بنفسك، ولا يُغني ذلك.

فلمَّا خرج رافعُ بن الليثِ على هارونَ بعدما نكب البرامكة، بعث إليه الجيوشَ ورافعٌ يهزمها، وأَنفق مكانَ كلِّ درهمٍ دنانيرَ ولم يُفِده ذلك شيئاً، حتى خرج بنفسِه إلى خراسان، فمات في تلك اللَّيلة، فكان يتأسَّف على البرامكةِ ويقول: لعن اللهُ مَن أَغراني بهم.

## الفُضَيْل بن عِياضٍ رحمةُ اللهِ عليه

أبو عليٍّ، التَّميميُّ، اليَرْبوعيّ[1]. من الطبقة الخامسةِ من أهل مكَّة.

وُلد بخراسان بكُورة أَبِيْوَرْد، وقدم الكوفةَ وهو كبير، فسمع بها الحديثَ من منصور ابنِ المعتمر وغيرِه، ثم انتقل إلى مكَّة، فأقام يتعبَّد بها إلى أن مات في أوَّل سنةِ سبعٍ

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٦١، طبقات الصوفية ٦، حلية الأولياء ٨/ ٨٤، تاريخ دمشق ٥٨/ ١١٩، المنتظم ٩/ ١٤٨، صفة الصفوة ٢/ ٢٣٧، مناقب الأبرار ١/ ٤١، تاريخ الإسلام ٤/ ٩٤٢، السير ٨/ ٤٢١.

وثمانين ومئة.

وكان ثقةً ثبتاً فاضلاً عابداً وَرِعاً كثيرَ الحديث، وهو أحدُ العلماءِ الزهَّاد والفتيان.

ويقال: إنَّه وُلد بسَمَرْقَنْد، ورأيتُ[1] فيها عشرةَ آلافِ جَوزةٍ بدرهم.

ويقال: نهرُ عياض منسوبٌ إلى أبيه عياضِ بن مسعودِ بن بِشر، وبينه وبين مَرْوَ نصفُ فَرْسَخ.

وكان الفضيلُ شاطراً يقطع الطريقَ بين أَبِيْوَردَ وسَرْخَس.

**ذِكر توبتِه:**

قال ابنُ خميس[2]: كان يَهوَى جارية، فبينا هو ذاتَ ليلةٍ يرتقي إليها الجُدْران، إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الحديد: ١٦] فقال: بلى قد آن. ورجع، فآواه الليلُ إلى خَرِبة، فإذا فيها رُفْقَةٌ يقولون: إنَّ أمامَكم رجلاً يقطع الطريقَ يقال له: الفُضيل، فسمع الفُضيل، فأُرعِد وقال: يا قوم، أنا الفُضيل، جُوزوا، ووالله لأَجهدنَّ ألَّا أعصيَ اللهَ أبداً. ورجع عمَّا كان عليه.

وقيل: إنَّه سمع امرأةً تقول لابنها في القافلةِ وهو يبكي: أُسكت، لا يسمعْك الفضيل، فقال: ويلي! وبلغ من أمري أنَّ النساءَ يعيِّرن أولادهنَّ بي. فتاب ونَسَكَ.

**ذِكرُ طَرَفٍ من أخبار الفضيل:**

قال إبراهيمُ بن الأَشعث: سمعت الفضيلَ ليلةً يقرأ سورةَ محمَّد، ويبكي ويردِّد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [الآية ٣١] ويقول: إنْ بلوتَ أخبارَنا فضحْتَنا وهَتَكْتَ أستارَنا، إنْ بلوتَ أخبارَنا أهلكتنا وعذَّبتنا.

وسمعته يقول: تزيَّنتَ للناس وتصنَّعتَ لهم وتهيَّأت، ولم تزل تُرائي حتى عرفوك، فقالوا: رجلٌ صالح، فقضَوا لك الحوائج، ووسَّعوا لك المجالس، وعظَّموك، سَوءةً لك ما أسوأَ حالَك إنْ كان هذا شأْنَك.

وسمعته يقول: إنْ قدرتَ ألَّا تُعرفَ فافعل، وما عليك ألَّا تُعرف، وما عليك إنْ لم

(١) القائل هو الفضيل. انظر طبقات السلمي ص٨، وتاريخ دمشق ٥٨/ ١٢٥ .

(٢) في مناقب الأبرار ١/ ٤١.

يُثنَ عليك، وما عليك أن تكونَ مَذْموماً عند الناسِ إذا كنت عند اللهِ محموداً.

وقال الفيضُ بن إسحاق: سمعتُ الفضيلَ يقول: لو قيل لك: يا مُرائي، لغضبتَ وشقَّ عليك، وعساه قال حقاً، تزيَّنتَ للدنيا من حبِّك لها، وتصنَّعتَ حتى عرفوك الناسُ فأكرموك، وإنَّما عرفوك بالله، ولولا ذلك لَهُنتَ عليهم، تَزَيَّنْتَ لهم بالصُّوف فلم ترهم يرفعون بك رأساً، فتزيَّنت لهم بالقرآنِ فلم ترهم يرفعون بك رأساً، فتزيَّنْت بشيءٍ بعد شيءٍ، كلُّ ذلك إنَّما لحبِّ الدنيا.

وقال منصورُ بن عمار: تكلَّمتُ في المسجد الحرامِ فذكرتُ شيئاً من صفة النَّار، فصاح الفضيلُ بن عياضٍ ووقع مغشيًّا عليه.

وكان الفضيلُ يقول: لو خُيِّرتُ بين أن أعيشَ كلباً وأموتَ كلباً لاخترتُه.

وقال مِهران بن عمر[1] الأَسدي: سمعتُ الفضيلَ عشيةَ عرفةَ بالمَوْقف يقول وقد حال البكاءُ بينه وبين الدُّعاء: واسوأتاه منكَ وإنْ عفوتَ أو غَفرتَ.

وقال سعدُ بن زنبور[2]: كنَّا على باب الفضيلِ بن عياضٍ، فاستأذنَّا عليه، فلم يؤذنْ لنا، فقيل لنا: أَنه لا يخرج إليكم أو يسمعَ القرآن، وكان معنا رجلٌ مؤذِّن، وكان صبيًّا، فقلنا له: اِقرأ، فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ ورفع صوتَه، فأَشرف علينا الفضيلُ وقد بكى حتى بلَّ لحيتَه بدموعه، فقال: [من المتقارب]

بلغتُ الثَّمانينَ أو جُزْتُها ... فماذا أُؤمِّل أو أَنتظرْ
أَتَى لي ثمانونَ من مولدي ... وبعدَ الثمانين ما يُنْتَظر
عَلَتْني السِّنون فأبْلَيْنني

ثم خنقته العَبْرة، وكان معنا عليُّ بن خَشْرَم، فأتمَّه لنا فقال:

فرقَّتْ عظامي وكلَّ البَصَرْ

وأخذ الفضيلُ بيد سفيانَ بنِ عُيينةَ وقال: إنْ كنتَ تظنُّ أنَّه قد بقي على وجه الأرضِ شرٌّ مني ومنك، فبئس ما تظنّ.

---

(١) في صفة الصفوة ٢/ ٢٣٩: عمرو.

(٢) في (خ): سعيد بن زهور، والمثبت من تاريخ دمشق ٥٨/ ١٨٦، وصفة الصفوة ٢/ ٢٣٩.

وكان يقول: إني لأَعصي الله فأَعرف ذلك في خُلُق حماري وخادمي.

**ذِكرُ عبادتِه رحمةُ اللهِ عليه:**

كان يُلقَى له حَصيرٌ باللَّيل في مسجد، فيصلِّي ويغلبه النَّوم، فينام ساعة، ثم يقوم فيتوضَّأ ويصلِّي، فيغلبه النَّوم، فيتوضَّأ ويصلِّي، فلا يزال كذلك حتى يُصبح. وكان يختم القرآنَ في كلِّ ليلة.

**ذِكر قصَّته مع هارونَ الرشيد[1]:**

قال الفضلُ بن الرَّبيع: حجَّ أميرُ المؤمنين، فأتاني، فخرجتُ إليه مُسْرعاً وقلت: يا أميرَ المؤمنين، لو أرسلتَ إليَّ لأَتيتُك، فقال: وَيْحَكَ يا عبَّاسي، قد دخل في نفسي شيءٌ لا يُخرجه من قلبي إلَّا عالمٌ بالله؛ فالتمسْ لي رجلاً أسأله، فقلت: ها هنا سفيانُ ابن عُيينة، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه، فقرعتُ بابه، فقال: مَن ذا؟ قلت: أَجِب أميرَ المؤمنين، فخرج مُسْرعاً فقال: يا أميرَ المؤمنين، لو أرسلتَ إليَّ لأَتيتك، فقال له: خُذْ لِمَا جئناك له رحمك الله. فحدَّثه ساعةً ثم قال له: عليك دَين؟ قال: نعم، فقال لي: يا عباسيُّ اقضِ دَينَه.

فلمَّا خرجنا قال: ما أَغنى عني صاحبُك شيئاً، ولم يُزِل عن قلبي مما حلَّ فيه قليلاً ولا كثيراً، فانظر لي رجلاً أسأَلُه، فقلت: هاهنا الفضيلُ بن عياض، فقال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فإذا به قائمٌ يصلِّي في غرفةٍ له، يتلو آيةً من كتاب اللهِ يردِّدها ويبكي، فقرعتُ الباب، فقال: مَن هذا؟ قلت: أَجِب أميرَ المؤمنين؟! فقال: مالي ولأمير المؤمنين؟! فقلت: سبحانَ الله! أَمَا عليك طاعة؟! فنزل ففتح الباب، ثمَّ ارتقَى إلى الغرفة فأَطفأَ المصباح، ثم التجأَ إلى زاويةٍ من زوايا البيت، فدخلنا، فجعلنا نجولُ عليه بأيدينا، فسبَقَتْ يدُ هارونَ إليه قبل كفِّي، فقال: ما أَلينَها من كفٍّ إنْ نجت غداً من عذابِ الله! فقلتُ في نفسي: لَيكلِّمنَّه الليلةَ بكلامٍ نقيٍّ من قلبٍ نقيّ.

فقال له: خذ لِمَا جئناك له يرحمك الله، فقال الفضيل: إنَّ عمر بنَ عبدِ العزيز لمَّا ولي الخلافةَ، دعا سالمَ بن عبدِ الله بن عمرَ ومحمَّد بن كعبٍ القُرَظيَّ ورَجاءَ بن حَيْوةَ

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٠٥، وتاريخ دمشق ٥٨/ ١٧٣، والمنتظم ٩/ ١٤٩، وصفة الصفوة ٢/ ٢٤٢.

فقال لهم: إنِّي ابتُليت بهذا البلاءِ فأَشيروا عليّ، فعدَّ الخلافةَ بلاءً، وعَدَدْتَها أنت وأصحابُك نعمة، فقال له سالم: إنْ أردتَ النجاةَ من عذاب الله، فليكن كبيرُ المسلمين عندك أباً وأوسطُهم أخاً وأصغرُهم ولداً، فوقِّر أباك وأَكرِم أخاك وتحنَّن على ولدك[١]، وقال له رجاء: إنْ أردتَ النجاةَ من عذاب الله، فأحبَّ للمسلمين ما تحبُّ لنفسك، ثم مُتْ إذا شئت، وإنِّي أخاف عليك أشدَّ الخوفِ يوماً تَزِلُّ فيه الأقدام، فهل معك رحمك اللهُ ممَّن يشير عليك بمثلِ هذا[٢]؟ فبكى هارونُ بكاءً شديداً حتى غُشي عليه.

قال الفضل: فقلت: يا أبا عليّ، أُرفُق بأمير المؤمنين، فقال: يا ابنَ الربيع، تقتلُه أنت وأصحابُك وأَرْفُقُ به أنا؟ ثمَّ أفاق وقال له: زِدني رحمك الله، فقال: بلغني أنَّ عاملاً لعمرَ بنِ عبد العزيزِ شكي إليه منه، فكتب إليه عمرُ يقول: أمَّا بعد، فإني أذكِّرك طولَ سهرِ أهل النارِ مع خلودِ الأبد، وإيَّاك أن يُنصرفَ بك غداً من بين يدي اللهِ تعالى، فيكون آخرَ العهدِ وانقطاعَ الرجاء، والسلام. فلمَّا قرأ عاملُه الكتاب، طوى البلادَ حتى قدم على عُمر، فقال له: ما الذي أَقدمك؟ فقال: خلعتَ قلبي بكتابك، لا عُدتُ إلى ولايةٍ حتى ألقَى اللهَ تعالى.

فبكى هارونُ بكاءً شديداً ثم قال: زدني رحمك الله، فقال: إنَّ العباسَ عمَّ رسولِ الله ﷺ سأل رسولَ اللهِ ﷺ فقال: أمِّرني على إمارة، فقال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ الإمارةَ حَسْرةٌ ونَدامةٌ يومَ القيامة، فإن استطعتَ ألَّا تكونَ أميراً فافعل»[٣]. فبكى هارونُ بكاءً شديداً، ثم قال: زدني، فقال: يا حسنَ الوجه، أنت الذي يسألك اللهُ غداً عن هذا الخَلقِ يومَ القيامة، فإن استطعتَ أن تقيَ هذا الوجهَ من النار فافعل، وإيَّاك أن تُمسيَ وتصبحَ وفي قلبك غشٌّ لأحدٍ من رعيَّتك؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن أصبح لهم غاشًّا لم يَرَحْ رائحةَ الجنة»[٤]. فبكى هارونُ وقال له: زدني، فقال: لو سألتَ جميع مَن معك أن يحملوا

(١) في المصادر أن هذا كلام محمد بن كعب، وقد جعله المصنف من كلام سالم؟!

(٢) في (خ): بمثل هارون، والتصويب من المصادر.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٢١١) والبيهقي ١٠/ ٩٦ عن محمَّد بن المنكدر مرسلاً بلفظ: «يا عباس، يا عم رسول الله، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها» وأخرجه البيهقي أيضاً موصولاً عن ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه، وصحح المرسل.

(٤) أخرجه البخاري (٧١٥٠) و (٧١٥١) ومسلم (١٤٢) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

عنك خطيئةً من خطاياك لم يفعلوا، وإنَّ أشدَّهم لك حبًّا أشدُّهم منك هرباً، فقال له: زدني، فقال: إنَّ في حكمة آلِ داودَ عليه السلام: وعلى العاقل ألَّا يغفُلَ عن ثلاثِ ساعات: ساعة يُناجي فيها ربَّه، وساعة يُحاسب فيها نفسَه، وساعة يخلو فيها بإخوانه الذين يَصدقونه فيها عن عيوبه.

فقال له: هل عليك دَين؟ قال: نعم، لربِّي لم يحاسبني عليه، فالويلُ لي إنْ سألني، والويلُ لي إنْ ناقشني، والويلُ لي إن لم أُلهَم حجَّتي، فقال هارون: إنَّما أعني دَينَ العباد، فقال: إنَّ ربِّي لم يأمرْني بهذا، وأمرني أن أوحِّدَه وأُطيعَ أمره، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الآية [الذاريات: ٥٦] فقال: هذه ألفُ دينار، خذها فأَنفِقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك، فقال: سبحانَ الله! أنا أدلُّك على طريق النَّجاةِ وأنت تُقابلُني بمثلِ هذا، سلَّمك الله ووفَّقك.

ثم صمت ولم يكلِّمنا، وخرجنا من عنده، فلمَّا صرنا على البابِ قال هارون: يا عبَّاسي، إذا دللتَني على رجلٍ فدلَّني على مثلِ هذا، هذا سيِّد المسلمين.

قال: فدخلت عليه امرأةٌ من نسائه فقالت: يا أبا عليّ، قد ترى ما نحن فيه من ضيقِ الحال، فلو قبلتَ عطيةَ هذا المال فتفرِّجنا به، فقال: مَثَلي ومثلُكم كمثل قومٍ لهم بعيرٌ يأكلون من كَسْبه، فلمَّا كبر نحروه وأكلوا لحمَه.

فلما سمع هارونُ هذا قال: ندخل فعسى أن يقبلَ المال، فدخل، وخرج الفضيلُ فجلس في السَّطح على باب الغرفة، وجاء هارونُ فجلس إلى جنبه، وجعل يكلِّمه وهو لا يُجيبه، فبينما نحن كذلك، إذ خرجت جاريةٌ سوداءُ فقالت: يا هذا، قد آذيتَ الشيخَ منذ الليلةِ فانصرف، قال: فانصرفنا.

وقال سفيانُ بن عُيينة: حجَّ هارونُ فقال لي: أريد أن أَلقَى الفضيلَ لعل اللهَ أن يُحدِثَ لي عظةً أنتفعُ بها، فقلت: واللهِ إن ذلك لَحبيبٌ إليّ، ولكنه رجلٌ قد أخذ نفسَه بخدمة الله، فما لأحدٍ فيه حظّ، وأكرهُ أن تراه مشغولاً بنفسه فتتوهَّمَ فيه جفاء، ووالله إنه الرجلُ الكريمُ العِشرةِ الحسنُ الخلُق، فقال: واللهِ ما عزمتُ على لقائه حتى وطَّنت نفسي على احتمال أخلاقِه، ويحك يا سفيان، إنَّ شرفَ التقوى شرفٌ لا يُزاحَم عليه بإمرةٍ ولا خلافة.

قال سفيان: فأتينا الفُضيل، فأَبلغته ما قال، فقال: إنَّه يُحسن العقلَ لولا ما مُني له من فتنة هذه العاجلة، وإنِّي لَيسرُّني أن ألقاه ويسوءُني أيضاً، أمَّا ما يسرُّني من لقائه؛ فلِمَا أرجو أن يكونَ فيه بعضُ [فائدة][1] كنجاته عن غَيِّه، وأمَّا ما يسوءُني، فإنِّي لم أرَ مثلَه يرفلُ في سوابغ النِّعم وهو عُريانٌ من الشُّكر، ثم قطَّب بين عينيه وقال: وما قَدْرُ مَن كان عاصياً لله حتى أراه، لا حاجةَ لي في لقائه.

قال: فلم أزل أَرفُق به حتى أَذِن، فأخبرتُ هارون، فجاءَ ومعه مسرور، فدخلنا ووقف مسرورٌ بالباب، وسلَّم هارون، فوجد منه رائحةَ المسك، فقال: اللهمَّ إنِّي أسألك رائحةَ الخلدِ التي أَعددتَها لأوليائك المتَّقين في جنَّات النَّعيم، ثم تَبادَرَت دموعُه على لحيته وهارونُ واقف، فقلت: يا أبا عليّ، هذا أميرُ المؤمنين واقفٌ يسلِّم عليك، فرفع رأسَه وقال: وإنَّك لَهُوَ يا حسنَ الوجه؟ قال: نعم، قال: اِعلم أنَّ الأحكامَ قد سُلبت فضيلةَ العدل، وظهر في المِلَّة عدوان الأميرين، والكلُّ في صحيفتك يُدْرَج معك في كَفَنك إلى يوم النُّشور.

ثم نهض واستقبل القِبلةَ وقال: اللهُ أكبر، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أمَّا إذا دخل في الصَّلاة، فليس فيه لأحدٍ مَطْمَع. وخرجنا، فقال لي هارون: لولا خَجَلي منك لقبَّلتُ ما بين عينَيه، فقلت: لَوددت واللهِ أنَّك فعلت ذلك.

وقيل: إنَّ هارونَ لمَّا دخل على الفضيل، قال لابن عُيينة: مَن هذا؟ قال: هو من بني هاشم، وكان ابنُ عيينةَ قد قال لهارون: إنْ علم بك لم يأذنْ لك في الدُّخول عليه، فلمَّا وجد منه رائحةَ الطِّيب عرفه، ثم قال الفضيل: حدَّثني عُبيدٌ المُكْتِب عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: هي القراباتُ والمَودَّات التي كانت بينهم في الدُّنيا، فبكى هارون.

ولمَّا امتنع الفضيلُ من قَبول المال، قال له هارون: يا أبا عليّ، ما أَزهَدك! قال: أعرف مَن هو أزهدُ مني، قال: ومَن هو؟ قال: أنت، قال: ولِم؟ قال: لأنِّي أنا زهدتُ في دنيا فانية، وأنت زهدتَ في الأُخرى الباقية.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق، وانظر مناقب الأبرار ١/ ٤٧.

**ذِكر نُبذةٍ من كلامه رضي الله عنه:**

كان يقول: لو عُرِضت عليَّ الدُّنيا بحَذافيرها على ألَّا أُحاسَبَ عليها، لَتقذَّرتُها كما يتقذَّر أحدُكم الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبَه.

وقال: لو حلفتُ أنِّي مُراءٍ أحبُّ إليَّ من أن أحلفَ أنِّي لست بمراء.

وقال: تركُ العملِ لأجل الناسِ هو الرِّياء، والعملُ لأجلهم هو الشِّرك.

وقال: مَن جلس مع صاحبِ بِدعة، لم يؤتَ الحكمة.

وقال: أحقُّ الناس بالرِّضا عن الله أهلُ المعرفةِ به.

وقال: لا ينبغي لحامل القرآنِ أن يكونَ له حاجةٌ إلى أحدٍ من الناس؛ الخلفاءِ فَمن دونَهم، بل ينبغي أن تكونَ حوائجُ الناسِ كلِّهم إليه.

وقال: ما أدرك عندنا مَن أدرك بكثرة صلاةٍ ولا بصيام، ولكن بسخاء النَّفْس، وسلامةِ الصدر والنُّصح للأمَّة.

وقال: مَن عرف الناسَ استراح.

وقال: أَشتهي مرضاً بلا عُوَّاد.

وقال: تباعَدْ من الناس، فإنَّهم إن أحبُّوك مدحوك بما ليس فيك، وإنْ مقتوك شهدوا عليك بما ليس عندك.

وقال: مَن كان بطاعته من اللهِ قريباً، كان بين الخلقِ غريباً، ومَن كان لنفسه في صحَّته طبيباً، كان في مرضه لطبيب الأطبَّاءِ حبيباً.

وقال: جعل الله الشرَّ كلَّه في بيت، وجعل مفتاحهَ حبَّ الدنيا؛ وجعل الخيرَ كلَّه في بيت، وجعل مفتاحَه الزُّهدَ في الدنيا، لأنَّ الراضي لا يتمنَّى فوق منزلتِه منزلة، والزاهد أخير.

وقال: الفُتوَّة: الصَّفحُ عن عَثَرات الإخوان.

وقال: إذا أراد اللهُ أن يُتحفَ عبداً، سلَّط عليه مَن يَظلمه.

وقال: لو أنَّ العبدَ أحسن كلَّ الإحسانِ وعنده دجاجةٌ لم يُحسن إليها، لم يُكتَب من المحسنين.

وقال: لَأَن يصحبَني فاجرٌ حسن الخُلقِ أحبُّ إليَّ من أن يصحبَني عابدٌ سيِّئُ الخلق.

وقال: ليست الدُّنيا دارَ إقامة، وإنَّما أُهبط آدمُ إليها عقوبةً له، أَلَا ترى إلى ما جرى عليه وعلى ذرِّيته إلى يوم القيامة، تارةً بالعُري، وتارةً بالجوع، وتارة بالحاجة إلى الناس، فاللهُ سبحانه مرمرها عليهم، وجعلها دارَ نَصَب، واللهُ سيصنع بذرِّية آدمَ ما يشاء، كما تصنع الوالدةُ بولدها، تارةً تَسقيه صَبِراً[1]، وتارةً دواءً غير مُرّ، وإنَّما تريد بذلك ما هو الأنفعُ له.

وقال: مَن استحوذت عليه الشَّهوات، انقطعت عنه موادُّ التوفيق.

وجلس إليه رجل، فقال: ما الذي أَجلسك إليّ؟ قال: رأيتُك وحدك فجئت لأُؤانسَك، فقال له الفضيل: أنا منذ أربعين سنةً أَستأنس بالوحدة، فإمَّا أن تقومَ عني أو أقومَ عنك، فقال له الرجل: أَوصِني، فقال: أَخفِ مكانَك واحفظ لسانَك.

وقيل له: ما لنا لا نرى خائفاً؟! فقال للسَّائل: لو كنتَ خائفاً لرأيتَ الخائفين، إنَّ الثَّكلى هي التي تحبُّ أن ترى الثَّكالى.

وقال أبو العباسِ خادمُه: احتبس بولُ الفضيل، فرفع يديه وقال: بحبِّي لك إلَّا أَطلقتَه عني، فما بَرِحْنا حتى شُفي.

وقال الفضيل: أَقمتُ ثلاثاً لم أَطْعَم، فدخلتُ مسجداً من مساجدِ الكوفة، فإذا مجنونٌ قد دخل وفي عنقه سلسلةٌ وبيده حَجَرٌ، فقصدني، فخفتُ منه، فقال: [من الطويل]

محلُّ بيانِ الصَّبر منك غريزةٌ[2] فيا ليت شِعري هل لصَبْرك من أجرِ

قال: فقلت: لولا الرجاءُ لم أصبرْ، فقال: أين محلُّ الصبرِ ومستقرُّ الرجاءِ منك؟ فقلت: موضعُ مستقرِّ همومِ العارفين، فصاحَ وقال: صدقت، ثم قال: أَلَا تسألني عن حالي؟ قلت: بلى، فقال: عرفتُه فاستأنستُ به، وأحببته فارتحلتُ إليه، ثم قال: أَمَا

(١) الصبر: الدواء المر، وانظر أقواله في مناقب الأبرار ١/ ٤٢ـ٤٥.

(٢) في (خ) ومناقب الأبرار ١/ ٤٨: عزيزة، وفي طبقات الأولياء لابن الملقن ص٢٦٩: عزيز، والمثبت من تاريخ دمشق ٥٨/ ١٣٦.

علمتَ أنَّ لله عباداً قطعهم الجَزَعُ عن كَلَف الأَلسُن، فكَلَّت من غير عِيٍّ عن مجالس الوصفِ خوفاً من العقاب، وإنَّ حاجةَ أحدِهم لَتتردَّد في صدره لا يذكرها مخافةَ شرِّ نفسِه، فأصبحوا في الدُّنيا محزونين، وإلى حبيبهم مشتاقين، عقولٌ صحيحة، وأَلسُنٌ ذاكرة، وقلوبٌ بالحبيب متعلِّقة، وأرواحٌ في المَلَكوت الأعلى سارحة، ثم ولَّى وهو يقول: [من البسيط]

أَحسنتَ ظنَّك بالأيَّام إذ حَسُنت ... ولم تَخَف شرَّ ما يأتي به الحَذَرُ[1]

وسالَمَتْكَ الليالي فاغتَرَرْتَ بها ... وعند صفوِ الليالي يَحْدُث الكَدَرُ

وقال الفضيل: رأيتُ شابًّا بعرفةَ والناسُ يبكون ويتضرَّعون وهو ساكت، فقلت له: أهذا مَوضعُ السُّكوت؟! فقال: يا شيخ، وَحْشَة، فقلت: هذا موضعُ العفوِ عن الذُّنوب، فبسط يَده ووقع ميِّتاً.

ومات لبعض العلماءِ ولد، فعزَّاه الناس، فلم يقبل عزاءً، فجاءه الفضيلُ فقال له: ما تقول في رجلٍ كان له ولدٌ محبوسٌ فأُخرج من السجن، أيفرح أبوه[2] أم يحزن؟ قال: بل يفرح، قال: فإنَّ ولدَك كان محبوساً، وقد أُخرج من السِّجن، وأنت محبوس، فقال: الرجل: تعزَّيتُ واللهِ يا أبا عليّ.

**ذِكرُ وفاتِه رحمه الله:**

مات في أوَّل سنةِ سبعٍ وثمانين ومئة. وقيل: سنةَ ثمانٍ وثمانين[3]. وقال سفيانُ بن عُيينة: اليومَ مات الحُزنُ من الأرض، ودفن بالمعلَّى، وقبرُه ظاهرٌ يزار.

أسند عن جماعةٍ من التابعين، منهم سفيانُ الثوريُّ، وابن عُيينةَ، والإمام الشافعيُّ، وبِشْرٌ الحافي، وغيرُهم[4].

---

(١) في مناقب الأبرار وطبقات الأولياء: سوء ما يأتي به القدر. والقصة في تاريخ دمشق، إلا أنه روى بيتين آخرين هنا.

(٢) في (خ): أباه.

(٣) لم أقف على هذا القول، وانظر تاريخ دمشق ٥٨/ ١٨٨، والوافي بالوفيات ٢٤/ ٨٠.

(٤) هؤلاء ليسوا بتابعين، وليسوا من شيوخه، بل هم رواة عنه، إلا سفيان الثوري فقد روى عنه وهو من شيوخه، وانظر تهذيب الكمال (٥٣٥٢)، ومصادر ترجمته.

وقال ابنُ المبارك: رأيتُ أعبدَ الناس وأَورعَ الناس، وأعلمَ الناس، وأَفقهَ الناس، أمَّا أعبدُ الناس فعبدُ العزيز بنُ أبي روَّاد، وأما أورعُ الناس فالفضيلُ بن عياض، وأمَّا أعلم الناس فسفيانُ الثوري، وأما أفقهُ الناسِ فأبو حنيفة.

وكان سفيانُ بن عيينةَ يقبِّل يدَ الفضيلِ بن عياض.

واتَّفقوا على صِدقه وثقتِه وأَمانته وزَهادته وعبادته.

وقال محمَّد بن حسَّان: شهدتُ الفضيلَ بن عياضٍ وقد جلس إليه سفيانُ بن عُيينة، فتكلَّم الفضيل فقال: كنتم معاشرَ العلماءِ سُرُجَ البلادِ يُستضاء بكم، فصرتم ظُلمة، وكنتم نجوماً يُهتدَى بكم فصرتم حَيرة، ثم لا يستحيي أحدُكم أن يأخذَ مالَ هؤلاء الظَّلمةِ ثم يُسندَ ظهرَه ويقول: حدَّثني فلانٌ عن فلان، فقال سفيان: هاه هاه، واللهِ لَئن كنا لسنا بصالحين فإنَّا نحبُّهم. ثم طلب منه سفيانُ الحديث، فأَملى عليه ثلاثين حديثاً.

وكان للفضيل من الولد عليّ، اشتهر بالزُّهد ومات في حياةِ أبيه. ومحمَّد، وعمر، وأبو عبيدةَ بنُ الفضيل، كوفيٌّ سكن مكَّة وقدم مصرَ وحدَّث بها، ورجع إلى مكَّة فتوفِّي بها في صَفَرٍ سنةَ ستٍّ وثلاثين ومئتين، رحمةُ الله عليه ونفعنا به في الدُّنيا والآخرة.